نيتشه

تأليف
هنري ليستانبرجر

ترجمة
خليل الهنداوي

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٤

فردریك نیتشه

مقدمة

لماذا آثرتُ نيتشه ؟

حقاً ان بيني وبين نيتشه اسباباً لا اظن انقطاعها يسيراً ، وقد اختلفت اليه ليالي كثيرة ، وليس بيني وبينه فاصل . ابثه من روحي ، ويبثني من روحه ، فنتألم معاً من الحياة ، ونرقص لها ابتهاجاً . ولا ادري علة هذا الترابط ! ومن ذا يستطيع ان يحفظ على التحقيق كل سبب يربط بينه وبين مفكر ما ؟ أليست ، هنالك ، اسباب مختلفة قد تتآلف وقد تتخالف ، فتمزج هذا المفكر مع عقلك وقلبك ، او لا تزيدك منه الا نفوراً؟ وما عسى يكون سر تعلقي بنيتشه الا سر تعلقي بالحياة ؟ كانت الحياة عندي ظلمة حالكة فنورها نيتشه بفجره . كانت الحياة شكاً مراً ، وقلقاً مستحوذاً عليّ ، فبدل بشكي ايماناً ، وبقلقي عزيمة لا تتقلقل . كان سفيني مضطرباً في خوض لجج الحياة ، تهم يد الضلال بافتراسه ، فاستنقذه نيتشه ، وساقه الى

منارة الحياة ! ذلك فضل نيتشه عليّ ؛ واعظم بهذا الفضل !

وكيف يريد اولئك الذين لاموني على انكبابي على نيتشه ان اصدف عنه ؟ واني لواجد فيه علامة من العلامات الواضحة التي تنصبها الحياة الضالين عن مناهجها . فنيتشه هو علامة فيض الحياة المتفجرة ، والارادة الصارمة . ولعل اولئك السقماء الذين انوه فرّوا من مباضعه القاسية ، وتعاليمه العنيفة ، لانهم يريدون علاجاً يبعث في اعضائهم المسلولة الدفء والسكينة ، وهو انما يريد اعضاء تبارك الحياة بالعزم والحركة . انه قد احرق العلاجات المخدرة للاوجاع قبل ان يقدموا . فاذا كنت صابراً على احتمال قسوته فأقبل عليه !

ان نيتشه لا يفتقر الى جثث خالية من الاحساس ، يحملها على ظهره ، وانما هو يريد رفاقاً احياء هدّامين مثله ، قد ادّرعوا الارادة ، وصافحوا الالم رفيقاً لا سيداً . يقتحمون بارادتهم وصرامتهم كل شيء كالسيل الجارف ، لا يصدهم عن غرضهم صادّ ، ولا يقف سيرهم حاجز . يثبون فوق القمم وثباً ، لا يزحفون كالحشرات زحفاً . في نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوة ، يفرضونها على الزمان ، ولا يجد الزمان الى إضعافها سبيلاً . . . هؤلاء الرفاق الاشداء يستطيعون ان يعيشوا مع نيتشه ، ويجدوا الحياة في كل ادوارها ، ويحلقوا فوق آلام الحياة وافراحها .

وكيف لا نتفقد هؤلاء الرفاق في مجتمع مريض لا نرى فيه

الا قطعاناً هائمة على وجوهها من الناس ، ورعاة غافلين ، همهم صفو السمر ، واوامر مقطوعة مقدسة ، وتقاليد جامدة ، يتغنى بها القوم حين يريدون الرقص والغناء ، وشباباً ماتعين تناسوا وجولتهم الكاملة ، ومثقفين « شكلياً » اهملوا رسالتهم ، كأن تلك الراحة الطويلة قد اورثت اعضاءنا الشلل ، فاذا مستها الحياة لم تقدر على الحركة ، كما اورثت تفكيرنا الخدر والجمود ، حتى اصبح تفكيرنا رياء ، والتظاهر بالتقاليد رياء ، وهل كان الرياء الا ثوباً من اثواب الضعف والعجز والكفر بالنفس ، ترتديه امة رضيت لنفسها ان تجرجر ايامها نزولاً بدلاً من ان تصعد وترقى!

وان اغفال علماء الاجتماع عندنا لهذه الظاهرة الخلقية اغفال فيه جناية لا تغتفر . يجلس مفكرنا في جماعة ، فيفصل لفكره عشرين وجهاً ، يقبل عليهم بوجه ، ويعرض عنهم بما تبقى . ويصلي عابدنا عشرين ركعة ، يمنح واحدة لله ، ويمنح الباقيات لنفسه . وهكذا غلب الرياء علينا في كل مظاهر تفكيرنا وتقاليدنا ، حتى بات علامة من علاماتنا المميزة لنا .

هذه هي المظاهر التي غاظت نيتشه يوم اعلن الثورة على الضعف والرياء . فليت شعري من سيغيظ الضعف والرياء في مجتمعنا الحاضر ، فيعلن الثورة عليهما ، وعلى المرتدين اردیتهما!

ان العقل العربي عقل قوي بنشأته ، صادق بمزته ، وهو لا يحتاج الى من يبث فيه معنى القوة والصرامة لانه قائم عليهما . ولكن جيلنا الحاضر اعتنق الفكرة العربية مجردة من معنى القوة

والصرامة ، فتشوهت بذلك الرسالة وضاعت معالمها .

كنت اتلو مواعظ « زرادشت » فـأحس ان قوة جديدة اخذت تطغى على قلبي، واشعر باضطراب في نفسي جعلني أومن بان الحياة لا يعسر عليها ان تخرج منها ألف حياة . ولم لا ؟ كنت اسير معه وهو يهدم انصاب الرياء ، ويضرب التقاليد بعضها ببعض ، فأطرب لشجاعته ، واعجب بنفسي واهتف : « هل كان في استطاعتك ان تطئي هذه الارض وحدك لولا هذا النبي ؟ » . ولكن طربي لم يكن كاملاً ، لانني كنت ابغي لمثل هذا النبي الهدام ان يقيم بيننا ليلة واحدة، تنفذ عينه خلالها الى قلوبنا الطافحة غشاً وخداعاً، وقصورنا ومعابدنا المفعمة كذبا ورياء ، فينطف هذه القلوب ، ويدمر هذه القصور !

اين اراك يا زرادشت العرب؟ ومتى يكون الموعد ؟ لقد اصطلح على ايذائنا كل شيء حتى انفسنا . تمشي الحياة بنا ونحن ذاهلون ، ويستيقظ الفكر في كل مكان ، ونحن نضرب حوله السدود، ونقيم له الحدود. نفر من الالم لانه يضنينا، ونستجدي الفرح من غيرنا استجداء . يتحرك كل شيء حولنا ، ونحن لا ترضينا الحركة ، ولا تستهوينا اليقظة . نقول بالانسانية ونشفق عليها، وقائلوها لا يملكون من انسانيتهم شيئاً، يحسون آلام غيرهم ولا يحسون آلامهم . يشدد غيرنا « روح الذاتية » عندهم، ونحن نسعى الى محوها، كأننا نريد ان نمثل دور الشرق الاول يوم كان يفيض انسانية على غيره . وقد قتلنا هذا الحب المفرط

بالغير ، وقد قتلنا هذا الزهد الخامل . تسامى غيرنا فوقنا ، فهم يريدون ان يعرفوا انفسهم بعد ان وجدوها ، ونحن تائهون لمّا نعثر على انفسنا .

تعال ايها الذي أينما كنت ! فهنا كثيرون ممن يرتقبون اوبتك . واحمل مباضعك ، وائت بنفسك وقلبك ، وايقظ افكارنا ، وبث فينا الحياة . أعطنا الحياة وخذ منا فديتها ! اتريد منا ان نتألم ؟ اننا نتألم ونحتمل الشقاء في سبيل الحياة . شدّد شعورنا بالحياة وزدنا ايماناً بها . اهدنا الى انفسنا وحببنا بها ، فقد علمونا ان نمقتها . تعال استأصل جذور الضعف فينا والذل ، فقد اكلت انفسنا الاحشاشات ... تعال ولا تعطنا شيئاً الا ما نؤدي ثمنه ، فقد ادركنا ان كل ما يعطى ويوهب رحمة يضر بآخذه .

تعـــالي يا ارادة القوة والصرامة ، فكثيرون هنا يرتقبون وصولك ... والطريق ممهد ، والغاية دانية القطوف .

خليل الهنداوي

تمهيد

يعد « فردريك نيتشه » ممثل الفكرة الالمانية الجبارة في تاريخها الحديث كما كان « بسمارك » رجلها الحديدي في السياسة. فهما ، وان اختلفت نوازعهما وتباينت خطوطهما ، ما غرسا الا بذور القوة والارادة في شعب تلقحت دماؤه وافكاره بعصل القوة والارادة .

هنالك كلمة تسطرها يراعة الفلاسفة والنقاد ، وتشغل مكاناً في العصر الحديث. هذه الكلمة هي كلمة «الانحطاط الاجتماعي». وفلاسفة الاجتماع لا يرون في هذا الانحطاط شيئاً سياسياً يمكن اصلاح الفاسد فيه ، او اعوجاجاً يمكن تقويمه. بل هو داء عضال تأصل في جسم البشرية ، وجرى في لحمها ودمها ، فهو لا يذهب الا بذهابها ، ولا يتلاشى الا بانقراضها . من هؤلاء المفكرين المسرفين في تشاؤمهم « فردريك نيتشه » الذي نازل العالم كله وحده ، وهدم العقائد والتقاليد مستمداً من عقله وقلبه عقائد وتقاليد أسمى منها .

عنصر الشخصية في نيتشه

ان من الجور ان ننظر فيما ترك نيتشه من تعاليمه « كمذهب محدود » لان الرجل لم يعمل على ان يؤلف مدرسة فلسفية ، ولم يكن لمثل عقله الوثاب ان يقيد نفسه بقيود ضيقة ، وانما هو الثورة الجارفة التي لا تعرف نظاماً ولا انتظاماً ، يملك عليها الاضطراب في تفجرها . ويغلب على عقله التناقض حتى في الفكرة الواحدة . وانما الاجدر بنا ان ندرس من فلسفته « الناحية الشخصية او الذاتية » وهي ابرز نواحي فلسفته جلاء وقوة ، لانها بنت طابع خاص ، وهوى صادق مستتير . ان فلسفة نيتشه فلسفة تتجلى فيها « الذاتية » المنقطعة عن الناس : « ماذا يقول لك شعورك ؟ يجب ان تكون كما انت ! » ينبغي للانسان ان يعرف نفسه وجسده وحواسه ، وان يتجه بحياته كما تريد ذاته وشخصيته ، وان يغتنم من الفرص احسن ما يغتنم ، ومن المصادفات ما يحقق مطامعه ويقرب غايته . وان يصح بقدر ما يستطيع هذه الطبيعة بالفن ، ليتسنى له ان يظهر ذاته ، ويبعث حياته . كل يغترف من هذا المذهب بحسب غريزته وطبيعته ، اذ لا قواعد ولا اساليب محدودة تصنع لكل انسان نفسه . فمذهب « عدم

المساواة » بين الناس هو من مبادىء نيتشه ، اذ ينبغي لكل انسان ان يخلق بنفسه حقيقته وهدفه وفضيلته . فما كان صالحاً لواحد قد يكون ضاراً لآخر ، وما كان ضاراً لواحد قد يكون صالحاً لآخر . وكل ما يستطيع المؤرخ ان يصنعه هو ان يقص تاريخ نفسه ، والطريقة التي اكتشف بها نفسه ، والايمان الذي وجد به راحة نفسه ، وان يكون المثال الذي يقتدي به معاصروه الوصول الى عوالم انفسهم . ولكن ليس له بعد هذا كله من مذهب او من طريق ، لانه لا يود ان يكون راعي قطيع خاضع ذليل .

يقول زرادشت لرفاقه الامنـاء : « انني وحدي اذهب يا رفاقي ! وانتم وحدكم اذهبوا ! انا اريد ذلك . في الحقيقة اعطيكم هذه النصيحة : ابتعدوا عني كثيراً ، واعتقوا انفسكم مني ! والخير لكم ان تخجلوا مني ... انتم تقولون « انكم مؤمنون بي » ولكن ماذا يهمني ايمانكم يا من آمنتم بي ، بل ماذا يهمني كل المؤمنين ! انتم لم تبحثوا بعد عن انفسكم ، ولذلك وجدتموني ، هكذا يقول المؤمنون كلهم . ولهذا ارى ان كل ايمان هو شيء ضئيل حقير . والآن ، آمركم بان تفقدوني لتجدوا انفسكم . وعندما تكفرون بي اعود اليكم في تلك الساعة ... » .

يتميز نيتشه من اصحاب المذاهب الفلسفية بانه لا يخاطب العقل وحده كما يفعلون ، بل يخاطب الانسان بجملته : عقلاً وجسداً . فما التفكير عنده والعاطفة الا اهواء تعبث بها قوة خفية كامنة

توجهها كما تشاء الى ابن تشاء. ان وراء اهوائك وعواطفك سيداً قادراً ، وعاقلاً مجهولاً يسمى « الذات » يسكن جسدك ، وانما هو جسدك ، فالجسد ، بما يضم من اعضاء ، وبما يحتوي على ارادة القوة، هو ما يدعوه نيتشه « العقل الكبير في الانسان »، وان العقل الحقيقي وحده ناقص ، سريع العطب ، تستعين به الذات على بسط قوتها ونفوذها . فاذا اراد انسان ان يؤثر في آخر فبهذه الذات الخفية وحدها يمكنه التأثير ، وكل شيء ما عداها باطل . وان من اللغو ان تعرض مذهباً فلسفياً بالطرق المنطقية ، او تحدد العقل بالمقاييس التي اخترعها العقل . وانما هذه الاحكام المنظمة ، مجموعة التقاليد المقدسة ، المحددة للخير والشر، والجميل والقبيح ، انما هي احكام موضوعة، لا ظل لها من حقيقة، ولكن الانسان هو واضعها ، ومقدسها . وخيرنا من ساعد على نشر « ذاته » وشخصيته . فالكتاب ، مثلاً، ان هو الا فعل يقوم بقيام شخصية صاحبه ، وبكيانه الكامل . فهو اذن ليس بفكر فحسب ، بل هو نبي... لا يقول للناس : « انا احمل اليكم الحقيقة العالمية غير المقلقة بذاتي » ، ولكنه يقول : ها اناذا بما في من ايمان وحقيقة وخطأ كما انا ... اقول : نعم ، للكون ، لكل افراحه وآلامه . فانظروا ان كنتم تجدون ايضاً سعادتكم في هذه الآراء التي وجدت فيها سعادتي » .

وبينما يروح غيره من الفلاسفة متباهين بانسلاخهم عن شخصيتهم نرى نيتشه يجعل من شخصيته مدار فلسفته . ففلسفته في الحقيقة هي تاريخ نفسه . و « زراداشت » النبي الذي كتب

عنه بلهجة شعرية مؤثرة، هو ذات نيتشه بما يجول فيها من رغائب، وآمال، واحلام. ومن لم يفهم شخصيته لا يفهم فلسفته.

حياته الاولى

ولد نيتشه عام ١٨٤٤ من اسرة يعتقد بانهـا اسرة بولونية قديمة الجأها الى المانيا ما الجأهـا من احداث. نراه في حداثته مثـال السيطرة والاعتماد على الذات، وقهر الآلام الجسدية. وقد كان كثير الوفاء والاحترام لاصدقـائه برغم ميله الطبيعي الى العزلة، صارماً في معاملته. لا يميل الا الى من يلائم هواه، ويوافق مزاجه. ولا ينفر الا ممن طغت الرداءة والشراسة على خلقه. صاوم في حديثه، جـاد في مزاحه. لا يهوى المزاح الكاذب مهما كان مذهبه؛ لان خروج الرجل عن طبيعته في الحياة الخاصة يخرجه عنها ما يخرجه في الحياة العامة. لا يطيب له مجلس العامة من الناس ولا الدخول في حلقاتهم. وانما هو في حياته كما تمثله لنا كتاباته: ارادة فولاذية، وسيطرة بعيدة، وكأنه جبل من طينة غير الطينة البشرية. لا يهوى الضعف، ولا الاستكانة، ولا يميل الى الاستسلام. ولعل الكاتب الدانمركي «ايبس» قـد رسم شخصية نيتشه في مسرحيته «الراعي براند» الذي كان رجل كل شيء، او لا شيء. يمشي في طريقه، لا يصده شيء، ولا يقفه حاجز. ولا يشفق على نفسه ولا على غيره. يضحي بدون وجل - بسعادته من اجل اتمـام اوادته، يمشي ولا يتسرب اليه الضعف دامي القدمين، محطم القلب، مخترقاً

سبيله ، بطلاً ابسل في كل ما يريد . ولا يزال هذا دأبه حتى يرجه الجنون، او ترحمه المنون.... مثل نيتشه مثل هذا الراعي؛ رجل كل شيء او لا شيء . يذهب بارادته حتى النهاية ، وقد تكون هذه البطولة عند نيتشه احد عوامل سروره كما يكون الاستشهاد لذيذاً عند من يقضي في سبيل وطنه او عقيدته .

على ان هنالك نفوساً شاذة في هذا المجتمع ، من يقدر لها ان تحارب التعاليم والتقاليد ، وهي تعلم ان في هذه الحرب شقاءها وبلاءها . تراها مضطربة بطبيعة حالها حتى تكون ذات قلب شديد ، وارادة فولاذية تستعين بهما على اقتحام المصاعب. ومثل هذه البطولة بطولة المجاهد الذي تتصلب ارادته ، وتتحجر عزيمته، وهو ، خلال ذلك، مفتقر الى صداقة تسعده ، وتساعده. ومن عسى يتخذ صديقاً له من بين هذه المخاليق الناقصة ? على انه اتخذ اصدقاءه يقنع بكمالهم ويؤمن بمثلهم ، ويغضي طرفه عن نقصهم . وقد صور ، في مطلع حياته ، بعض صور اصدقائه صوراً تامة كاملة كأنها المثل الاعلى . وبهذا وجد في الفيلسوف الجرماني العابس «شوبنهور» اسمى مثال للفلسفة. وفي الموسيقار «ريشارد فاغنر» اسمى مثال للفن . واذا قدر له ان يجد في صحبة هؤلاء راحة نفسية في البدء فانه وجد في نهاية هذه الصحبة ألماً طالما انصبه وعذبه . ومبعث هذا الالم ان الفيلسوف ظل ساعياً دائباً وراء «الانسان الكامل» الذي يمثله له مثله الاعلى . وكم جرب ان يغض الطرف عن نقائص صديقيه، والا ينظر فيهما الا مثلاً اعلى للكمال الانساني ! ولكن ارادته غلبت في النهاية على

الصداقة، فتذوق من حرمان الصداقة المرارة كما تذوق الحلاوة، وهكذا آب الى عزلته ، لان طبيعته تدعوه اليها .

وهنالك علاقته بالمرأة تبدي ناحية من نواحي نفسه ، فقد زعم الناس ان نيتشه كان يذهب من المرأة مذهب معلمه « شوبنهور » الذي كان يمقت المرأة . ويستشهدون على ذلك بقوله : « ايها الذاهب الى المرأة ! لا تنس عصاك ! » ولكن هذا الحكم يسهل نقضه على المحقق في تعاليم نيتشه . فالمرأة التي طعنها نيتشه في الصميم هي المرأة « المسترجلة » التي تريد ان تزحم الرجل في علمه وجهاده واقتصاده، اما غير هذه المرأة فهو مقدر اياها ، محترم لفضلها ، مقدس لمعنى المرأة فيها. ولقد كان له منهن صديقات وصاحبات فضليات . وهو وان لم يتذوق من امرأة ذلك الهوى العاصف ، والحب اللافح، فقد تذوق عطفها الرقيق وعاطفتها الخالصة . وقد ذكرت شقيقته في مذكراتها : « ان اخاها كان يجهل الحب العادي ، وانما كان همه الشاغل له البحث عن الحقيقة . على ان هذا الفيلسوف السئم ، المنطوي على نفسه الذي لم يستسلم الى الاهواء المصطخبة، والميول الملتهبة، قد تذوق في ايام نكبته من عطف المرأة ما لم ينعم بمثله الا قليل. فهو صاحب مثل اعلى في الحب كما كان في الصداقة .»

وهنالك نشأته المدرسية ، فقد دلت على طبعه الارستقراطي الذي ينفر من كل شيء مبتذل شائع، ولا يميل الا الى كل جميل لامع. وطبعه هذا هو الذي حمله على اعتزال رفاقه الذين يدرسون

معه . وذوقه هذا الجانح الى محبة الاشكال الجميلة ، مال به الى عشق «الجمال القديم» وحب «العبقرية الفرنسية الغابرة والحاضرة» ونفوره من السوقة والعامة جعله ينفر من المسيحية ، ويصفهـا ويصف اصحابها ورسلها وصفاً قاسياً ، ويكره كل المبادىء التي تبشر بها الديموقراطية ، والانسانية الاشتراكية . وكل تعاليمه الخلقية انما تؤول الى هذه الغاية : « هل هذه العاطفة شريفة او غير شريفة ؟ » . ولعل نيتشه كان يعبر عن نفسه الجبارة بهذه الجملة التي يرددهـا بطله « زراداشت » حين يقول : « تسألونني لماذا ؟... انا لست ممن يسألون حين يعملون : لماذا ؟ »

وهذه هي صفة نفس لا تعتمد الا على ارادتها . تحتمل الالم وتصدمه ، ثم تهزمه . وتقابل القدر ، وتعلن سيادتها عليه .

اطوار حياته

كان هوى نيتشه الراسخ في صدره هو عثوره على الحقيقة . فلننظر اي طريق ركب اليها ؟ وما هي الدوافع التي هيمنت عليه ؟ كان نيتشه بنت بنسب قوي الى أسرة مغرقة في دينها ، متشددة ، متعصبة ، مع ميل الى الدراسة العلمية . لقد قرن والده العلم الى الدين ، ومـا كان لنيتشه ان يبدل هـذا السبيل الذي اختاره له والده ، واختارته طبيعته . وقد عرفه اصدقاء الحداثة مثالياً في دينه وفي تقواه ، ولا عجب اذا اطلقوا عليه ، وهو في السادسة من عمره ، اسم العابد الصغير ! حتى اذا ما اتم

دراسته الاولى خرج الى الحياة ، وهو لا يزال يفكر في ربه ، ولا يكفر بنعمته ، ولا يجحد وجوده ، ومـــا هي الا اعوام كرّت حتى اخذ يرتاب في الدين المتصل بالعلم . لان ما في الدين من ايمان لا يلائم ، في اعتقاده ، ما في العلم من حرية وانطلاق. وهو عندما يعمل على درس الطبيعة والتاريخ ، متوخياً الحقيقة من وراء دراساته ، يجد في عمله هذا ما يسمح له بان يكون طليقاً حراً لا يسترقه شيء . ومنـذ ذلك الحين بدأ يطمع في الحقيقة العلمية ، دون ان يتسنى له ان يوفق زمنـــاً طويلاً بين حقيقته المفتودة وبين ايمانه الموروث ، فهما عنده حقيقتان متضادتان . اذا تلاءمتـا في اول الطريق فتزاعهما حقيق في وسطـه . واذا توافقتا في وسطه فالخلاف ناشب لا محالة في منتهاه . وها هوذا نيتشه يفصل الآن بين هاتين الحقيقتين ويكتب عام ١٨٦٢ «تجربة فلسفية على القدر والتاريخ» فيحدثنا انه سبر بعقله «اوقيانوس الافكار الواسع» وهمّ بان يجازف بنفسه في بحر الشك. ولكنه وجد ان بجازفة روحه الضعيفة التجارب، انمـــا هي ضرب من الجنون ، لانها لا تملك عدة كافية ، ولا تحمل سلاحاً .

ومنذ تلك اللحظـة الفى ان الديانـة المسيحيـة مبنية على افتراضات وهمية ، اما وجود الله ، والخلود، والوحي، فستبقى جميعها مسائل لا حل لها . «انني جربت ان اكفر بكل هذا . وما ايسر الهدم ! ولكن الهدم يستلزم البناء ، على ان الهدم والتخريب هما اصعب مما تتمثله عقولنـا . فنحن في الحقيقة لا

نعيش لانفسنا . ولا تملك انفسنا وقفاً علينا . فهناك اوهام الطفولة وأساطيرها تحتل مكاناً منا . وهناك تعاليم الآباء والمعلمين تؤثر فينا . وكلها عوامل مترابطة ، متلاحمة ، لايسهل على العقل ان يخترق سياجها ، ولا يمكن المنطق ان يقوم اعوجاجها . ان قوة العادة المتوارثة ، وتسامينا الى الكمال ، وانفصالنا عن العالم الحالي ، وحل عقد المجتمع ، والشك في حقائق الوجود ، وكلها نوازع تتنازعنا ، وتملك علينا ارادتنا ، والنكبات المفجعة ، والتجارب المؤلمة هي التي تسوق قلوبنا الى الايمان الذي ولد مع طفولتنا ، وصاحب حداثتنا .

وبعد ثلاثة اعوام ألفيناه ، نيتشه ، يخطو خطوته الاخيرة ، ويعلن ان الانسان بين حالين لا ثالث لهما . فهو اما ان ينتخب الايمان وما في الايمان من هدوء ووقار واستقرار ، واما ان يمشي على طريق محفوف بالمخاطر ، هو طريق الباحثين عن الحقيقة الذين لا يتخذون الهدوء والسكينة مأرباً لهم ، وانما يجدون مأربهم في نشدان الحقيقة ، يمشي الباحث منهم وحده مضطرب النفس ، قلق الضمير ، ممزق القلب نحو ضالته المنشودة ، ونحو ما يتجلى له من حق وخير وجمال . وهو اذا تنكب طريق الباحثين ، ورضي لنفسه بذلك الهدوء المجدب فقد قتل البطولة في نفسه ، وحكم على رجولته بالموت .

انفصل نيتشه عن المسيحية التي كان يؤمن بها قبل عهد الانفصال ايمانه بشيء رمزي قائم على قواعد رمزية ، شأن الحقائق

السامية تكون رموزاً لحقائق اسمى منها واعلى ، وظل يدرك خطر العمل الذي اقدم عليه ، ويتكلم ، في كل فصوله ، عن موت الاله ، كأن موته عنده حدث عظيم في تاريخ البشرية ، او عمل نقذ اليوم بدءه ، والاجيال القادمة ستكمله . ولكن نيتشه اعدم «هذا الاله» ليبعث اله الحقيقة. «هذا الاله الادبي قد مات ليعيش بعده الاله العلمي . » وهكذا حمله حنينه الهاجع في احناء نفسه للدين ، الى الايمان باله الحقيقة. وعندما وجد نفسه يتنازعها إلهان ، سلطانهما نافذ فيه : الاله الذي ورثه ، والاله الذي لقيه ، رأى ان يضحي بالاول ، ويبقي على الثاني . وهذا الاله الثاني هو الذي يسيطر وحده على كل تعاليم نيتشه ومبادئه، ولم يعش مع الهه هذا كما يعيش اولئك مع آلهتهم مستسلمين قانعين بما نزل على قلوبهم من برد اليقين . فهو يبدأ عاملاً على تحطيم كل عمارة مشيدة على الايمان بذلك الاله الاول. وهو الآن لم يعد يؤمن بنظام الطبيعة ، ولا بجمالها ، ولا يميل الى محاسنها. ولم يعد يرى في صفحات التاريخ ذلك القضاء الالهي ، والنظام السماوي اللذين يقودان الانسانية الى مرابعها التي خلقت لها ، ولم يعد يستسلم الى ذلك القدر الذي يذهب بحياتنا ما يشاء. ولا الى تلك الارادة الالهية التي تود ان تهدينا الى سبيل النجاة والسلام.

لقد بحث نيتشه جميع الاديان والشرائع منذ العصور الاولى؛ والمذاهب التي نزلت لتخرج الناس من الظلمات الى النور؛ وبعد ان شكك في هذه المذاهب ، وارتاب في حقائقها ، واغرق في

الانكار ، عاد الى هذه الفكرة التي قالها جازماً ، زاعما انه بهذه الفكرة حل مسألة الوجود : « الا ان الآلهة جميعهم قد ماتوا ! والآن نريد ان يحيا الانسان الكامل « السوبرمان » . وهكذا اضاع نيتشه الله ، ووجد نفسه .

بحث الناقدون كثيراً في فكرة نيتشه التي كانت تتطور وتتبدل تبعاً لما يحيط بحياته ، وهو ، قبل بلوغه هذا المرفأ ، خاض بحاراً كثيرة ، وجاز شواطىء كثيرة. وقد ادرك بذاته تطور ذاته ، فشبه نفسه بالافعى التي تنسلخ من جلدها ، او النسر الذي ينسل ريشه . والحياة عنده ليست بواجب يلقى ، ولا بعمل يفرض ، ولا بوهم يحجب . وانما هي مادة شأنها شأن المواد التي تقع بين يدي الباحث . وكان ينظر نفسه كالمتنقل بدون انتهاء؛ همه النضال؛ تهذبه انكساراته كما تهذبه انتصاراته. او كالوائب بين الصخور ، يكاد يذهب بنفسه ضحية على رؤوس الصخور الشاهقة وهو – بلا كلل ولا فتور – يصعد من عال الى أعلى ، ومن قمة الى قمة ، مبدلاً كل لحظة افقه ، عازماً الا يقف ابداً ، ولا ينثني ابداً. وفيقه الشجاعة وحليفه الصرامة ، لا يروعه البرد ولا تخيفه الهاوية . ولا يجزع من العزلة التي تتنفس فيها ريح الثلج المنهمر . هو دائماً في صعود وارتقاء !...

وهكذا يعتقد نيتشه الذي فهم الحياة بأنها تفوق بعضها على بعض ، يعتقد بان التطور لا غنى عنه ، ولا بد منه لانه مادة ضرورية في تحول الحياة . يعتقد نيتشه ذلك ، ويدأب على ان

يوفق بين حياته وارادته مع هذا المثل الذي اعتقد به . وقد كان توفيقاً كاملاً ، وكان تلاؤماً كاملاً . وصارت مسألة في الحياة هذه المسألة : « ما عسى يكون عندي معنى الحياة اذا لم يكن اله؟ » يجيب على هذه المسألة بهذه الكلمة : ان اللاشخصية ليس لها قيمة على الارض ولا في السماء . ان الحب الاكبر هو جوهر ضروري وجوده في كل مسائل الوجود الكبرى. وهذا الحب وحده جدير بالارواح القوية النشيطة ذات اليقين الراسخ. هنالك فرق كبير بين المفكر الذي يقابل مسائل الوجود بشخصيته ، يرى فيها قدره وفاقته كما يرى فيها سعادته ، وبين المفكر الذي يتجه اليها مجرداً من شخصيته، لا يعرف ان يلمسها الا بفكره البارد الغريب . ان هذا المفكر لا يستطيع ان يلمس شيئاً . وهب ان مسائل الوجود قد امكن لمسها فلن يقدر للضفادع ان تلمسها ، ولا للدجاجات المسترخية المترهلة ان تحسها . ونيتشه وجد في المسألة الكبرى شقاءه وسعادته ، وقد ناضلها بدون ضعف ولا هوادة. ونازلها جسداً لجسد ، دون ان ينفذ الى قلبه الوهن . حتى اذا اصابه الجنون وقضى على شعوره اعلن نشيد الانتصار .

اوليس هذا ، بعد ذلك كله ، قدراً جميلاً بين الاقدار ؟

حاسته الفنية

لم يكن نيتشه مفكراً فحسب ، بل كان فناناً ذا حاسة فنية عميقة ، يدل على ذلك ميله خلال طفولته الاولى الى الموسيقى

وعشقه لاربابا ، وهل كان الا غرامه بها الذي جعله ينظر الى « فاغنر » كمثل اعلى لموسيقى عصره ؟ وقد اكب على تلقن اصولها ومبادئها في صباه الاول . ودفعته حاسته الى نظم بعض المقاطيع الموسيقية . وما هي الا خطوة واحدة لو خطاها نيتشه لاشرف على عالم غير عالمه ، ولأشفى على وجود يبدل كل افكاره وكل آرائه . وهو يقول عن نفسه « لو لم ترجح كفة التفكير عندي لكنت الآن موسيقياً » على ان ذوقه الموسيقي لبث حياً في طوايا نفسه ، يرتاح الموسيقى اينما صدحت ، ويغيب في عوالمها حيث تفتحت عوالمها . وهو اكثر ما يطمئن الى تلك العوالم الفنية المظلمة التي تذهل فيها النفس ، وتدرج الى اعماقها حيث يلتقي الفيلسوف والفنان ، وقد يؤاخي هذه الحاسة — عنده — حاسته الشعرية ، فهو شاعر بالفطرة ، يبدي آراءه الفلسفية بطريق الشعر ؛ وله في الشعر جولات صادقة تدل على فن عميق وابتكار رائع ، وهو وان صدف عن عالم الشعر فان حاسته الشعرية لم تخمد ، بل ظلت تعاوده في كل ما كتب وسطر . وانشاؤه يغلب عليه الشعر والعاطفة ؛ لا يرى قارئه في تأملاته عقل نيتشه وحده وانما هو واجد كل كيانه يفكر ويكتب ؛ يطلع عليك بوجوده كله لا بفكره وحده .

الانعتاق

تكاد تكون تفاصيل حياته الشخصية محدودة ، فهو قد ولد عام « ١٨٤٤ » في « روكن » حيث كان ابوه قسيساً وقد تيتم

في الخامسة من عمره . فأتم دروسه الثانوية وتوجه الى الدروس العالية. وبينما كان يتهيأ للموضوع الذي ينال به «الدكتوراه» في «ليبزيغ» دعي ليكون استاذاً في جـــامعة «بال» وقد منح (الدكتوراه) بدون ان يعرض موضوعه. قضى ستة اعوام عادي النفس في الجامعة، يقوم بتدريس اليونانية. وهو خلال هذه الاعوام كالمقيد بصحبة اصدقـائه، لا يخرج من حلقتهم، وهؤلاء الاصدقـــاء هم زملاؤه وبعض رفاقه. اضف الى ذلك بعض زيارات متتالية الى منزل الفنان «فاغنر». وقد كان يختلس بعض الفرص فيذهب في بعض سياحـاته القصيرة الى البحيرات والجبال! ولم يعكر عليه هذا الهدوء الا اعلان الحرب السبعينية، فهجر الجامعة وتطوع في الجيش الالماني، ولكن صحته خانته، فاضطر الى العودة مريضاً. واعظم ما قام به من الآثار الادبية خلال هذه الفترة كتابه (نشوء المأساة) ونقده للحضارة الحديثة. في الكتاب الاول يعـــالج نبوغ اليونان وعبقريتهم المختلفة في الفنون، وفي الكتاب الثاني يعرض «تأملات في غير حينهـا» وهو ينطوي على اجزاء: في الجزء الاول يحمل على «دافيـد ستراوس»، وفي الجزء الثاني يبحث فائدة التاريخ واخطـاره، وفي الجزئين الأخيرين يبسط عبقرية الفيلسوف «شوبنهور» وعبقرية الفنان «فاغنر» معتقداً ان في امكان هذين النابغتين ان يقودا الانسانية الى مثلها الاعلى. وفي سنة (١٨٧٦) عرا حيـــاته الداخلية ما عرا حياته الخارجية من تطور وتبدل، واعظم ما نزل به، نزاعه مع صديقه «فاغنر» اضف الى هذا ما حاق بصحته

من سوء واعتلال ، حتى منحته الجامعة فرصة يقضيها اذا شاء في (ايطاليا) وعلى عذاب (سويسرا) . وبعد هذه الراحة عاد الى بذل الجهود برغم ان صحته كانت تنذر ولا تبشر بخير ، فجمع سنة ١٨٧٨ كتابه « اشياء انسانية ، وانسانية جداً » وكتاباً يضم « آراء مختلفة » و « المسافر وظله » فزادت صحته ضعفاً حال بينه وبين التعليم فاعتزل الجامعة لكي يجد المجال الفسيح والقوة الكافية لاتمام رسالته الفلسفية . وهنا بدل القدر صفحة حياته ومنحه حياة جديدة يغمرها الاعتزال وحرية التفكير والانفصال ، ليكمل تحت ظلها هذه الرسالة التي خلق لها . لم يكن ميل نيتشه الى دراسة اللغات القديمة مجرد هوىً او هيجان يشتعل ثم ينطفىء . فقد مال نيتشه الى هذه الدراسة بقلبه وعقله ، ذلك لانه يريد ان يظهر امره في علم ضيق المساحة ليدرك العلم فضله . وهو اكثر الناس علماً بقيمة العلماء الناقصين الذين يعلمون كل شيء ولا يعلمون شيئاً . وها هو ذا الآن لا يريد ان يعرف كل شيء . وانما يريد ان يعرف شيئاً معرفة متقنة ، فبذل ما بذل من صبر وجهد بذل الامين الراعي لامانته ، مدرعاً بالاناة التي لا غنى عنها للذاهب مذهبه ، راضياً بان يزهق روحه في سبيل العلم وخدمته . ولكنه سالك فيه مسلكاً جديداً لا اثر فيه للتعاليم الدارسة والتقاليد التي لا تجدي شيئاً . وهو يمزج هذه الدراسة مع الفلسفة والفن ويجعل من هذا المزج مزيجاً جديداً . يعتقد نيتشه بان المثل « الكلاسيكي » سيبقى خالداً لا يهدده الفناء ، فلا العلم ولا الخلق ولا التثقيف يستطيعة ان تنقذنا من

العربية اذا لاحظنا المثل الكلاسيكي ، وكفرنا بالبساطة الشعرية التي تتجلى في الفن اليوناني ، والبراعة اليونانية . واذا شاء رسل العلم ان يجحدوا هذه البراعة وينكروها على اليونان فانها براعة سائدة خالدة مسيطرة على براعتنا ، تدل على ان اليونان كانوا اكثر توفيقاً منا في حل مسائل الوجود . وهكذا تظهر مهنة «دارس علم اللغات » مهنة جميلة سامية . هو لا يعنى باحياء الآثار الماضية والنصوص البالية ولكنه كادح دائب في احياء روح اليونان القديمة . يريد ان يتفهم كيف قدر لهذه الروح ان تتسامى وتتعالى في الآثار التي تركتها ، والفنون التي انجبتها ، والمؤثرات التي تركت تأثيرهم بادياً في أدبنا وفلسفتنا فجعلت منهم اساتذة لا يزال الغرب يتلقى عنهم . هذا هو دأب نيتشه يوم دخل جامعة (بال) « مدرساً » يقول في احدى محاضراته : « ان دراسة علم اللغات ليست بالاهة شعر ولا بنبية رحمة ؛ لكنها رسولة الآلهة ، والآلهة في القديم كانت تهبط على القرويين المحزونين ، واليوم تهبط هذه الرسولة على عالمنا القاتم الالوان المظلم الرسوم المفعم بالآلام والشقاء الذي لا يشفى ، حاملة الينا بلسم العزاء عارضة علينا بأحاديثها تلك الوجوه الجميلة المتألقة في قطر خصب اخضر سعيد . ونظرة واحدة الى المؤلفات التي شاء ان يلم بها ، ترينا ما بذل صاحبها من قلبه وعقله في التحليل والاستقراء ، معالجاً الادب اليوناني وتاريخ اليونانية القديمة . والفصاحة اليونانية وتاريخ الفلسفة اليونانية حتى افلاطون . وبعض نظرات عميقة ينفذ بها الى بعض فلاسفة او شعراء . وقد قدّر بنفسه انه منجز خلال سبعة اعوام

او ثانية درس كل ما يتعلق ببراعة اليونان . واقدم على المقاداة بعشر سنوات من عمره ليكمل درس الفلسفة اليونانيـة من جميع وجوهها ، ولكن — وبا للاسف — ظلت هذه الافكار صوراً مقتضبة ومقاطيع صغيرة غير كاملة . لان صحته المحتقنة حالت بينه وبين تقديم مـــا ينبغي له لمثل هذا الامر ، فانثنى عن عمله هذا ، ولكن الصور التي تركها تكاد لا تخفي عنا الفكرة العامة التي اراد نيتشه ان يصورها وينشرها . يعتقد نيتشه بما اعتقد به معلمه « شوبنهور » بان جوهر الوجود هو الارادة ، وهذه الارادة واحدة عند كل الكائنات وهي تتجلى بثباتها وقوتها في جمال الخليقة : على ان هذه الارادة هي شقية تفتقر الى الرحمة لانهـا تثابر على الجهاد والمقاومة في هذا الوجود وهي موقنة عـالمة ان نتيجة المعركة عليها لا لها « وهل الحياة الا ان تريد شيئاً بدون سبب ، وان تتألم دائماً ثم لا ينتهي الالم الا بالموت ؟ ... وهكذا تقابل الحياة الاحياء حتى يتفطر الكون ويعم فساده . « ان الوجود في نظر العقل غير كامل ، لان نقائصه كثيرة . وعنصر الالم فيه غالب على السعادة والراحة ، وبهذا يقضى على العقل ان يطوي الارادة على نفسها ويسحقها من وجوده ، واذا انعدمت الارادة انعدم الوجود نفسه لان الوجود ما هو الا الارادة الفعالة ، ولكن نيتشه لا يذهب الى هذه النتيجة التي ادركها « شوبنهور » ، فالوجود الذي لا يكمل في نظر العقل — عند شوبنهور — يكمل كأثر فني يحمل الى صاحبه الغبطة الفنية . وفي مثل هذا الافتراض الذي يفترضه نيتشه يرى من واجب كل

انسان ان يستنفد وسعه ويبذل جهده في امتلاك نصيبه من هذا الجمال ، باحتوائه على ما في نفسه من معنى الجمال وبتأمله للوجود ولنفسه بعين الجمال . انا في ساعة الابداع الفني نشعر بغبطة لا تحد ولا تحس اذ هي غبطة المبدع ، واذا كان الانسان في هذه الحياة فرداً قائماً بذاته، حيا في عالم المادة، فهو فنان بطبيعة خياله المبدع الوثاب ، يستطيع ان يبدع ابداع من يخلق ويصور ان كان فناناً مبدعاً ، ويقدر ان يكون مبدعاً في تفكيره في الاثر الفني الذي يبعث في نفسه خياله الباطني ، لانه يشاطر المبدع فنه ويتحد معه في تحليقه . وهو في كلتا الحالتين متخيل صوراً او الواناً جديدة تبعث فيه الغبطة الفنية . ولا يضر هذه الصور ان تكون اخيلة او احلاماً لان اجزاءها مقتبسة من الوجود ، ولا ينبغي لهذه الصور ان تكون صوراً ضاحكة تملأ الجو افراحاً ، فقد تكون صوراً تملأ الأفئدة ذعراً والنفوس شقاء وتكون بعد ذلك كله جميلة.... هذه الخاصة العـــاملة على ابداع الصور والاوهام وتغليب الناحية الخيالية على الناحية الحقيقية يدعوهـا نيتشه « الخاصة الابولونية » نسبة الى « ابولون »[1] والفن الابولوني عنده هو النحت والتصوير والشعر القصصي. ان الرجل الابولوني يستنفد نفسه من التشاؤم باستسلامه للجمال . يقول للحياة : انا اريدك لان صورتك جميلة ، يجدر بهـــا ان تكون مادة للحلم والخيال... ولكن الانسان ليس بكائن يمكن تحديده بالذاتية ،

(١) اله الشعر والموسيقى.

او بالانفصال ، فهو كائن يشعر بنفسه كارادة متفوقة، ويحس انه قطعة من هذه الارادة الموزعة في هذا الوجود كله ، ويدرك انه يتحد مع كل ما يحيا وما يتألم ، تام الاتحاد مع الوجود . والانسان في حالة ذهول او سكر ناشيء عن مادة مخدرة ، او ازاء حوادث طبيعية كعودة الربيع ، يشعر بان هذا الحاجز الذاتي الذي يفصله عن الوجود قد ضعف وزال ، ويجد نفسه متحدة مع الطبيعة كلها . وهذا الطور يدعوه نيتشه « الطور الديونيزوسي » نسبة الى الاله « ديونيزوس »(١) ولغة الرجل الديونيزوسي هي الموسيقى التي يعتبرها « شوبنهور » لغة الارادة الخالدة بل صورة الرغبة الدائمة المستترة في باطن الوجود . والانسان في هذا الطور يحس بالالم الشامل والوهم الباطل وشقاء الفردية فيكاد يجنح الى التشاؤم، ولكنه يهتز قليلا ويشعر بخلوده ويدرك ان ارادته المفصولة انما هي جزء من ارادة الوجود. فتراه حيال كل مظهر من مظاهر الفناء او مصرع بطل من الابطال، تراه يشعر بان حياة الارادة الباقية لم تطفأ بموت البطل . ان الرجل « الديونيزوسي » ينقذ نفسه من التشاؤم لانه يبصر خلود الارادة والحادثات تمر والتقلبات تستمر؛ هو يقول للحياة « انا اريدك ! لانك انت الحياة الخالدة » .

وبهذين المذهبين يرى نيتشه ان اليونان قد قهروا التشاؤم ، وجعلوا الحياة جميلة زاهية ، ويرى ان التفاؤل اليوناني لم يكن

(١) اله الخمرة عند اليونان وهو « باخوس » عند الرومان .

وليد الخفة والعبث ، او تجاهل ما يغمر الوجود من شقاء وألم ، ولكنه تفاؤل تولد عن مثل اعلى وغاية اسمى ، والمؤرخ الذي يستقرىء هذه التأثيرات في مطلع تاريخهم يتبين له ان القوم عرفوا الالم كما عرفناه وتذوقوا الشقاء كما تذوقناه .

سأل ملك «ميدا» الفيلسوف «سيلين»: ما عساك تجد خير شيء للانسان؟ فاجاب الفيلسوف: «يا ذرية التعاسة والالم وابناء المصادفات والمتاعب ! لماذا تتقمون علي اذا جئتكم بما لا ترتاح له آذانكم ؟ ان الخير الذي لا خير بعده هو ألا تكون — ايها الانسان . مولوداً ، وألا تكون موجوداً وألا تصير شيئاً ! والخير العاجل لك ان تلقى مصرعك الآن». فهذا الالم المنبعث من اعماق الروح الشاعرة بالاوجاع والشقاء الذي يغمر الارض هو الذي اهاب باليونان ودعاهم الى ان يكملوا معنى الحياة الناقصة بخلقهم آلهة هي آلهة جبال «اولمبوس» . هذه الآلهة كانت نتيجة إبداع الروح «الابولونية» وانتصارها . ارادوا ان يستنقذوا ارواحهم من حقيقة الوجود المروعة فعمدوا الى خلق شعب من الآلهة وجملة اوهام طبقوها على الحياة التي يرونها صالحة للظهور ؛ وهم مؤمنون بان هذه الآلهة تعمل معهم على مجابهة التشاؤم . وهكذا لبست الحياة عندهم لباساً جديداً ، وظهرت ظهوراً جديداً ، وغدت جميلة في عيونهم لان آلهة جميلة تتصرف بها وتدير اقدارها ؛ و (هوميروس) هو المثل الاعلى للروح الابولونية؛ ومقاطيعه وقصائده هي نشيد انتصار الحضارة

اليونانية على سيئات الاجيال الغـــابرة ؛ وهي التي خلقت هذه الروح التي جعلت اليونان باوهامها واخيلتهـــا تتغلب على كآبة الحياة الحقيقية وقبحها . وازاء هذه البراعة « الابولونية » نشأت البراعة « الديونيزوسية » او براعة المـــأساة ، على ان الروح « الديونيزوسي » يكاد يكون فاشياً في كل اصقاع العالم القديم . وهو عند البرابرة كان يزجيهم الى الانهماك في المنكرات ! واشباع البهيمية الانسانية باللذائذ. واليونان برغم حضارتهم وبعدهم عن البربرية سرت اليهم العدوى ، ومشى فيهم هـــذا الروح . ولكن انهماكهم لم يكن انهماكاً بهيمياً. اقاموا الاعياد والاندية حيث تنطلق الطبيعة ويذهل الانسان متحداً بعاطفته مع الوجود. ومن هذا الانهماك تولدت « المأساة اليونانية » . والمأساة اليونانية يرجع اصل نشأتها الى فريق « الساتير » وهؤلاء عند اليونان هم ارواح من الطبيعة تحيا، ولا يتسرب اليها الفناء، تعيش بعيدة عن الحضارة. وظهورها في شعب متحضر يقضي على حضارته ويقذف بالحواجز التي تفصل الانسان عن الطبيعة . وهم يظهرون ان الطبيعة ثابتة قوية مخصبة برغم تقلب الامم وتبدل الشعوب . واليونان اعتقدوا ان هذا الفريق مخلوق طبيعي مجرد من كل براعة ، ولكنه ليس بهيمياً . يتجلى فيه شيء من السمو الالهي ، وهو رمز الغريزة الاكثر قوة وسيطرة على الانسان. هو سريع الهيام ، يذهله تقرب الاله منه . كثير الاشفاق والعطف لانه يقاسم « ديونيزوس » آلامه . وهو يسالم حكمة الطبيعة . وهو رمز خصب الحياة التي يعبدها اليونان عبادة دينية . كان هذا

الفريق يبدو في بدء نشأته وهو نشوان « بالسكر الالهي » ورقصه ، وموسيقاه تغادر روح الناظر في شبه ذهول عميق ، يمحو من نفسه ذكر الحضارة ويجرده عن ذاته حتى يرفعه الى مرتبته ويشركه في ذهوله وسكرته ؛ حتى اذا وجبت القلوب واستسلمت النفوس يلوح وراء هذا الفريق خيال الاله « ديونيزوس » ، وهذا السكر الالهي قد ولد خيالاً شعرياً لم يكن في حقيقته الا تعبيراً خالصاً عن حالة نفسية واضحة ولدها هذا السكر الصوفي ، فالمأساة اليونانية هي بحقيقتها موسيقية شعرية . وهي هتاف ظفر الارادة التي تشعر بخلودها ازاء تقلب الكائنات وتحولها. بطل كل مأساة هو الاله « ديونيزوس » وهي عاطفية لانها نشأت لتكون انشودة في مدح الاله ، ثم تطورت المأساة لتكون اشد تأثيراً في المخيلة ، فأصبحت صورة رمزية لسحابات يلوح بينها الخيال الالهي الذي يظهر على السكارى الهائمين في الوادي ، السكارى بالاله . ولكن « ديونيزوس » لم يعد يظهر بشكله الالهي . وانما يظهر بهيئات الابطال الذين يتمثل فيهم تحت قناع البطل « كيروموني » او « اوديب » . و « ديونيزوس » هو البطل الحقيقي في كل مأساة، يبدو بأشكال مختلفة . وهو في ظهوره هذا يشبه الانسان في حياته ؛ يتيه ويضل ، يناضل ويتألم .

« ديونيزوس » هو هذا الاله المتألم الذي تكلمت عنه الاساطير ، هذا الاله الذي يحس في نفسه بآلام الفردية ؛ هذا

الاله الذي قـــالوا عنه انهم جزأوه وهو صغير ، وعبدوه باسم الاله « زاكروس » ، ومن ابتساماته تولدت الآلهة ومن دموعه نشأ الرجـال . ان روح هذا الاله قد فتحت للعلم مجـــالاً عند اليونان. فهم بعد ان اطلقوا الارواح من التشاؤم بتأملهم للجمال او بشعورهم بخلود الارادة ، ذهبوا الى طريقة ثالثة ، هي المعرفة العقلية للوجود واجزائه . فجـــاء العلم حليفاً ثالثاً معهم يناضل التشاؤم ، فبينما يقول الفنان للحيـاة : « يليق بنـا ان نحياك ايتها الحياة! لان صورتك جميلة» يقول العالم لها: « انا اريدك ايتها الحياة ! لانك جديرة بان تُعرفي ... » وهكذا وجد العالم في اكتشافاته العلمية من اللذة والبهجة مـا يجده الفنان في اوهامه واخيلته. وتآزرت هذه الاوهام كلها لتجعل وجه الحياة المشوه جميلا . ويجب الا نجحد ان فضيلة العلم انما هي تتمثل في البحث الدائم والتنقيب المتواصل ، لا في الحقائق التي يكتشفها ، او النتائج التي يبلغهـا . وخطيئة العلم القطعي هي انه لا يقف عند معرفته للوجود واقتناعه بما ادرك وتفهم من احاجيه. وانما يثب الى اصلاحه واتمامه، فتسعده حالته الاولى ما دام يبحث وينقب، ويشقى في الحالة الثانية ما دام يطمع ويطمح الى مـا لا قبل له به . يعتقد ببساطة نفسه ان الوجود سهل فهمه بجملته واجزائه . وان رأس كل فضيلة هي المعرفـة ، وان الجهل هو مصدر كل بلاء ، وبالعلم وحده يستطيع الانسان ان يبلـــغ ما يشاء من امهات الفضائل .

جاء سقراط وهو اعظم مفكر يوناني جاحد للوحي يؤمن بان العقل وحده يقوم مقام الغريزة والفطرة في الحياة . والرجل العاقل له من عقله سلاح يدرأ عنه اخطاء الغريزة وضلال الفطرة. سلك سقراط طريقاً خالف به قومه واستطاع في النهاية ان يقهر معاصريه بسحر منطقه ، وباختياره لمصرعه الذي لقيه . ترك الحياة هادىء النفس لا يعضه اسى ولا يقرعه ندم ، كأنما كان يثبت بهذا المصرع ايمانه في الحياة ايماناً متفائلا لا يتضعضع ولا يتزعزع. هذا هو عقل سقراط الذي هزم « المأساة عند اليونان» وحق لهذه المأساة ان تتلاشى امام مجلس العقل ، لما يطغى عليها من تعاليم لا يجمع بينها قياس ولا منطق . يستند كل ما فيها من تأثير على الموسيقى . المأساة لا توحي شيئاً ولا توضح عن اية حقيقة نافعة بل قد تجيء فاحشة المغزى ، او ليس يبدو بعد هذا انها تعمل على تحطيم اجمل النماذج التي تخلقها الانسانية ؟ فاذا كان هنالك اواصر متينة بين العلم والفضيلة والسعادة الحقيقية - كما يريد العالم المتفائل - فان المغزى الفاجع يغدو بدعة خطرة . ان سقراط لم يهدم فن المأساة وحده ، بل هدم كل البراعة اليونانية . كان المثال الذي تجسد فيه العقل يوم كان اليونان يتبعون بأهوائهم شريعة الفطرة والغريزة . كانوا يريدون الحياة قوية جميلة ، وهو يريدها منطقية ، تفقه نفسها بنفسها ؛ كان مظهر سقراط مظهر المزدري لروح عصره ، وهو وحده اعلن بين معاصريه انه لا يدري شيئاً ، وانه على حق في خصامه معهم . يعرج على نوادي الشعراء والمفكرين والخطباء والمعلمين ، فيقول:

ان هؤلاء الواثقين بأنفسهم يفكرون ، ويجادلون بدافع الفطرة وحدها ، وهم لا يفقهون ما يصنعون . تراه حيثما توجه واينما انطلق لا يبصر الا وهماً باطلاً وخطأ فاشلاً ، مما اضطره ان يعلن انه متقدم على انشاء حضارة جديدة يديرها العقل وحده . فهدم الحضارة الاولى ولم يبق على شيء منها ، فعل ذلك وهو لا يشعر بان العالم الذي هدمه هو اسمى من العالم الذي راح يبنيه بعقله... هذا ملخص ما رآه نيتشه في « المأساة اليونانية » وهو جد آسف على ذهاب ذلك الماضي النبيل . وقد لا يفيدنا ان ننظر الى مذهب نيتشه من حيث تعلقه بالتاريخ ، فهو ليس في الحقيقة الا مذهباً يستخلصه من بعض نظراته المختلفة الى ادب اليونان . وللعلم الحق وحده ان يتقبل هذه النظرات او يأباها . يقول نيتشه عن شوبنهور : « انا بعيد جداً عن الاعتقاد بأنني قد فهمت شوبنهور ، ولكنني مؤمن جداً الايمان بان « شوبنهور » قد اعانني على تفهم نفسي » وحال نيتشه في درسه العبقرية اليونانية قد تشاكل هذه الحال ، فهذه الدراسة قد كشفت عن تفكيره وابانت عن منحاه في الحياة، وهذه الارادة التي يتدرع بها « ديونيزوس » تجابها اخطار الموت والشقاء والالم تعبر عن عاطفة عميقة من اسمى عواطف «نيتشه». ومهما كانت قيمة كتابه هذا فهو بعد هذا كله كتاب خالد يتلو علينا كيف احس نيتشه بذاته حين درس عبقرية اليونان .

يؤمن نيتشه بان حياة الانسان هي نضال دائم لكل وهم

ولكل خطأ ، وينظر الى الوجود بعيني متشائم ، فتبدو الطبيعة له صورة تبعث الخوف ، والتاريخ وحشياً خالياً من المعاني ، ينفر ممن يؤمن بان كل شيء هو للأحسن ! ولا يعتقد بان في وسع الحياة ان تهبنا لحظة فرح حقيقي ، واذا كانت هذه هي الحقيقة فواجب الانسان السامي ان يحـــارب بدون هدنة ولا هوادة كل ما هو سيء ، وان يهدم كل القيم الخاطئة والتعـــاليم الفاسدة ، وألا يرحم اي مظهر من مظـــاهر الضعف والرياء والجبن في هذه الحضارة (انني احلم برجـــال كاملين ، مطلقي الارادة ، لا يداورون ولا يراءون ، يدعون انفسهم الهدامين ، يخضعون كل شيء لنقدهم ويضحون بانفسهم في سبيل الحقيقة. ألا ينبغي لكل سيء ولكل كاذب ان يظهر تحت وضح النهار ؟ نحن لا نريد ان نبني قبل الساعة الموقوتة ، ونحن لا ندري اذا كان بامكاننا ان نبني ، او اذا كان الاحسن لنا ألا نبني ابداً . هنالك متشائمون كسالى خاضعون مستسلمون ؛ اننا لا نكون من هؤلاء ! ان المثل الاعلى الذي نتبعه ونترسمه هو الانسان الذي قال عنه « شوبنهور »: (من يعتقد ان السعادة الحقيقية هي غير ممكنة ، ومن يبغض ويمقت الوجود المادي الذي تتكامل فيه الانسانية المنحطة ، ومن يحتقر كل ما ينبغي سحقه ، ولا يشعر بالم يحز في نفسه او ينتشر حوله ويمشي بارادة جبارة لا يلويه عن عزمه شيء . وكل ارادته ان يكون مع الحق والصدق في كل شأن من شؤونه) . يصل شوبنهور بانسانه الى سلب الحياة منه والى الفناء المطلق. اما نيتشه فانه يقدس « كاليوناني الديونيزوسي »

هذه الارادة التي تريد الحياة الخالدة ، وتعمل على تخليدها باي الوسائل . فهو متشائم ؛ لكن تشاؤمه لا يدفعه الى الاستسلام ، ولكن الى البطولة المناضلة ، فهو يرى الزهد علامة من علامات الانحطاط والذل ، لان التشاؤم – عنده – فكرة مستحيل تحقيقها لا يقبل بها واقع ولا يثبتها منطق ، ولن يكون الفناء غاية الوجود ، هكذا راح نيتشه يجد الحياة وآلامها بدلاً من ان يبشر بالفناء وبغض الحياة كمعلم ، يقدس ما يقوي في الانسان ارادته ، ويضاعف عزيمته للوصول الى الهدف الاسمى ، ونيتشه في هذا شأنه شأن اليونان في مآسيهم ، يفخر بذاته ، ويطول بسموه ، ويعجب بالحضارة اليونانية لانها انشأت جماعة من الرجال السامين ، وهل غاية الحياة الا مثل هذا التوليد ؟ والانسانية عنده تركض وتتألم وتتمخض لتلد هذا العدد الضئيل من هؤلاء الرجال السامين ، وانا على الانسانية ان تعمل لتحمل الى الارض رجال عبقرية . هذه غايتها ، وليس لها من بعدها غاية ! وان علينا ان نوحي اليها ان تعجل بتوليد الفيلسوف والفنان فينا وفي غيرنا . وان نسعى الى اكمال معنى الطبيعة وان على الانسان ان يحس بنفسه انه صنع غير كامل من صنع يدها . ولكننا نوقظ فيه – برغم نقصه – هذه العبقرية الفنية حتى يساعد الطبيعة على اكمال ما جاء ناقصاً منها ، وبهذا يكمل الانسان الفنان صنع الطبيعة . وبهذا تغدو معرفة الانسان نفسه وشعوره بصغرها هي اساس نهضته... وألا انني ارى فوقي شيئاً يتألق هو اسمى مني ؛ فيه من معنى الانسان اكثر مما في نفسي ! فساعدني على

الوصول الى هذا المثل ، كما انني ساعمل على مساعدة من يفكر مثلي ويتألم مثلي... كل ذلك انمهد الطريق امام ذلك الانسان المقبل ، الشاعر بكماله ومعرفته الواسعة ، ومحبته العميقة التي لا تحد ، وقدرته المولدة وتأمله البعيد ، هذا الانسان الذي سيحيا في الارض حاكما ، بيده مقياس كل شيء . ، فيجب والحالة هذه الا نترك للمصادفة عمل هذا الانسان، وانما ينبغي للناس ان يجهدوا ويعملوا بالانتخاب على خلق هذه الذرية — ذرية الابطال — . على ان هذا المذهب قد يترك جحفلا من العبيد الذين شأنهم ان ينفذوا ارادة الابطال، والعبودية - عند نيتشه - لازمة لتحقيق مثل هؤلاء الابطال. اذ ليست غاية العلم والبراعة ان تخفف من نصب هؤلاء المتعبين . فعمال اليوم ليسوا بأكثر سعادة من عبيد الامس. هؤلاء كانوا يخضعون لشرفاء ذوي غطرسة وخيلاء . واولئك دائبون على خلق صفوة سامية من رجال العبقرية ، فالبطل ليس دأبه ان يحقد على المظلومين والمتخلفين فحسب ، بل ينبغي له ان يقتل عامل الشفقة في نفسه اذا هب لانه عامل خطر ، اذا ظفر عمل على قتل البراعة في سبيل السعادة المادية للانسانية. وهو - هنالك - لا بد مصطدم بالشريعة الغالبة التي تسيطر على الوجود . وكل من ود ان يحيا، او حكم عليه ان يحيا في وجود مشحون بالألم والفناء افينبغي له ان نشتمل نفسه على هذه المضادة المؤلمة التي تعبر عن كنه الحياة ، وسر كل تطور واستحالة ؟... وكل لحظة تفترس الثانية . وكل ولادة هي موت كائنات لا عداد لها . الولادة والحياة والموت

كنه ذو جوهر واحد . وهكذا نستطيع ان نشبه البراعة المنتصرة بالبطل الظافر الذي يسيل دمه من جراحه ، ولكنه يجر خلفه قطيعاً من المغلوبين والعبيد المقيدين بعجلته. ينبغي لنا اذا اردنا الحقيقة ان نضرب بكل وهم باعث على التفاؤل عرض الحائط . فالرجل الغربي الذي يظن ببساطة نفسه ان العلم يبعث على السعادة، ويرى ان سعادة الجميع هي غاية الحضارة القصوى، هذا الرجل يجرب ان ينكر تعس « العبيد » هذا التعس اللازم للمجتمع البشري . وهو يتوه عليهم بقداسة العمل ، زاعماً ان الآكل بعرق جبينه هو اشرف الناس ، فيا له من مذهب حقير اصبح لا يخدع احداً ! ولماذا لا نعترف بان العبودية هي حقار وصغار ، ولكننا نستطيع ان نخفف وقعها ، ونجعلها اقل شقاء، ونحتم على اصحابها القبول بها... فما ظل المجتمع الانساني على هذا الوضع فان فيه الاقوياء الذين يرفعون عظمتهم على طائفة من المستضعفين في الارض .

كان المدفع يدوي في جوف اوربا ، ونيتشه معتزل في احد اودية « الالب » يعالج درس الروح اليونانية وفنهم وحياتهم . ولما استقر السلام اعلن ان عصر الاحزاب قد شارف النهاية وان روحاً حرة يجب ان تنهض وتعرف كيف تتعالى فوق هذه الحدود «ان الشرق والغرب مفصولان بشحطة يرسمها قلم لاعيننا. هذه الشحطة هي التي تثير خوفنا . تقول النفس الفتية (انا اجرب ان اكون حرة) وحق لها ان تثور لانها ترى ان شعبين

قد يفرقان دماءهما لان بحراً يفصل بينهما، او لان ديانتين مختلفتين عندهما لم تكونا قبل الفي عام ، وهكذا نرى نيتشه بكل ما اوتي من تفكير وقوة يريد ان يزعزع تقاليد عصره ، ويشعر بنفسه بانه لم يخلق لحاضره وانما خلق للاجيال القادمة .

غزوات نيتشه

الغزوة الاولى

حمل نيتشه في الغزوة الاولى على الكاتب الالماني « دافيد ستراوس » وعلى كتابه الذي اخرجه في درس الدين والمدنية ، والايمان : قديمه وحديثه ، وقد يحتدم غيظاً في نقده للجزء الثاني من الكتاب حيث يعلن « ستراوس » المثل الاعلى الذي يجده خير ما وجده لابناء الاجيال القادمة ، ونيتشه يصب سوط نقده على الرجل الذي لم يعلُ ولم يسفل ، بل وقف موقفاً وسطاً قانعاً بما آل اليه ، يأخذ من كل علم بجزمة ، ويقنع من كل فن بضمة ، ويعتقد انه بلغ الدرجة القصوى من الكمال الانساني . لا يؤمن « ستراوس » بجنة المسيح ولا يرتاح لوجود الله وانما يعمل على ان يوحي الى القارىء ان العالم ما هو الا رحى ميكانيكية لا تهدأ عن دورانها ، وما على الانسان الا ان يسلم من الوقوع تحت ثقالها ، وهو في الاخلاق كذلك . فلا يبشر بمذهب خطر ، ولا

يجرؤ على ان يطلب الى الفرد ان يستخدم مواهبه وان يكون كما تريد نفسه في الوجود ، وانما يقول هذه الجملة بعد تنبته من اختلاف الناس في حظوظهم ومواهبهم: « لا تنس ابداً أيها الانسان ان الآخرين هم اناس مثلك ، لهم نفس حاجاتك وذات مآربك » . يحسب كل ما تجاوز حد الفهم الوسط قبيحاً ، لان العبقرية تتجلى في التوسط لا في التطرف « فالسمفونية التاسعة » لبتهوفن لا تقع موقع الرضا الا عند من يرون الغريب عبقرية ، والخروج عن المألوف والوزن سحراً ، وقد ظن بنفسه انه قهر « شوبنهور » ببرهانه الركيك الذي رآه « اذا كان الوجود قبيحاً فالعقل الذي اوجده هو قبيح ايضاً ، فالمتشائم اذن هو مفكر قبيح ، والوجود هو حسن وجميل !...» ان ستراوس في نظر نيتشه هو مثال العقل المتوسط الذي يدعي معرفة كل شيء ، ويريد ان يفرض سلطته على الوجود . هو مفكر هياب لا يبلغ بفكره الا منتصف الطريق ولا يستطيع ان يقصد نهايته. انه متفائل يغلق عينيه عن الآلام الضرورية للبشر خوفاً ورهبة . وهو مفكر يدعو الناس الى حياة قانعة خانعة ، وبدلاً من ان يكرم رجال العبقرية يعمل على مماكستهم لانهم — بزعمه — خالفوا نظامه ومثله الاعلى باختراقهم حدود النبوغ المتوسط .

الغزوة الثانية

وتصدى نيتشه في تأملاته الثانية للتاريخ، وهو لا يجابه رجلا

معلوماً او طائفة مشهورة وانما يتناول مذهباً حديثـاً يهم بان يشيع ويطبع الحضارة العصرية بطابعه ، فالتـاريخ هو خير راع للحضارة، وناقل لها ما ظل يعمل على خدمة الحياة ويحث الناس على نشدان الحياة السامية ، فالتاريخ الموقوف على نشر المآثر يمثل للانسان آثار الاقدمين الرائعة ويبعث في روحه الامل الملتهب والعزم المتأجج لاكمال معنى هذه الآثار ، ويعمل على رفع مثل الانسانية الاعلى نافضاً من قلبه التلهي بحب الحاضر والاستسلام لملذاته ، اما التاريخ التقليدي الذي يوحي للانسان احترام الاشياء الفانية ، وحب الآثار الماضية ، فهو خير حقير يحمل اصحابه على الرضا بالحاضر الممقوت؛ يسكرهم بذلك الماضي الزهي البعيد ويسكب في وجودهم القائم المستكين عذراً شعرياً يبعثهم على الركود . وهنالك التاريخ الناقد الحاكم ، يعرض الماضي كله على محكمة العقل ويبحث فيه ثم ينفيه، لان كل ما كان من حقه ان يزول . ان مثل هذا التاريخ هو سلاح محمود عند من اثقلت ظهورهم اعباء الماضي الثقيل ، وهم يريدون ان يطرحوها عنهم ويمشوا قدماً الى ما خطت لهم الحياة . وقد يستحيل التاريخ الى قوة غاشمة مميتة حين ينفصل في طريقه عن الحياة، وحين يود ان يفرض مذهباً خاصاً بعيداً عن مذاهبها، انه يصبح رسول موت لا رسول حياة، ينشىء من الانسان مجموعة محشوة علوماً ومعارف ويقتل فيه القوة التي تسوقه الى العمل . انه مجموعة اثرية لا حظ فيها لسطر من سطور العمل ، صاحبها ضعفت شخصيته ونشأ في تفكيره عالة على غيره ، ونعلم ان

التاريخ يجب ان يتلقنه تلقيناً ، والا يضعه بنفسه ؛ على ان المؤرخ الحقيقي الذي ينبغي لمثله ان يسطر التاريخ هو من يقف تجاه المسألة التي يدرسها وقفة الخلي ويعمل دائماً على تشييد بناية الحاضر . رجل التجارب والسعي هو الذي يسطر التاريخ .

وللتاريخ وجهة ثانية رائعة يستخلصها نيتشه : هي ان التاريخ يكرم من التفاؤل ما كان محفوفاً بالكدر والخطر ، ويحترم الميول الفطة ويعبد الظفر . يعتقد المؤرخ انه يرى في الحركة الانسانية اثراً لا اعلم من اي عقل سام منحدره . يجهد العقل ليدرك انى بدأت هذه الحركة واين يجب ان تنتهي؟ والانسان لم يكن عظيماً الا حين كان يشن الغارة على القدر ويعلن الحرب على القضاء الاهوج ؛ ولكنه يفعل ذلك دون ان يخرج من نفسه . ليس التاريخ الحقيقي بذلك التاريخ الذي يأتي على كل شيء وانما هو تاريخ ابناء العبقرية ، وسيأتي عصر تتبدل فيه صورة هذه الحركات التي الف التاريخ تسجيلهـــا ، وستوسم هذه الصورة بصورة ادنى الى الحقيقة ، فلا يكتب التاريخ بعمومه وخصوصه وانما يقتصر فيه على رجال العبقرية الذين اثروا في العالم : هم لا يأتون ويتعاقبون بحسب شريعة تاريخية ، ولكنهم يعيشون وراء الزمان ! يمثل وجودهم المتصل المتماسك معبراً ترابطت اجزاؤه واستمكنت عقده فوق الامواج العاصفة . ولنعم هذا التاريخ الذي يرسم هذه الصورة ويخرج هذا المثل ! وهذه هي جمهورية العباقرة التي تحدث عنها « شوبنهور » . عبقري ينادي عبقرياً في

تناء العصور واهضام الاجيـــال . ووظيفة التاريخ ان يجمع شتاتهم ، ويدني بعضهم من بعض ، وان يهيء — في كل مهلة — ولادة جديدة لعبقري جديد . اذ ليست غـــاية الانسانية من سيرها ذلك الغرض الذي تزحف اليه وانما غايتها تتمثل في النماذج الكاملة التي تخرجها وتنشئها في الوجود .

الغزوة الثالثة

ولم يقف الامر عند تهديم العمارة القديمة وتعاليمها المخطرة . فهو يقصد الى تشييد عمارة المستقبل على دعائم جديدة ، فتجرى عن عباقرة احياء يستطيعون ان يذهبوا بالشباب الى هذه العمارة والى هدف جديد ، ينزع عنهم هذا التفـاؤل المخدر ، ويعرضهم امـام انفسهم مجردين ، وسعى الى ان يرى له معلمين يساعدونه على كشف نفسه ويعرفونـه بنفسه ؛ من اين نشأت والى اين تذهب ؟

وقع ، لو شاءت المصادفات ان يقع نيتشه مصادفة على كتاب « شوپنهور » « العالم ارادة وتمثيل » وما كان نيتشه ليقدر ان هذا الكتاب سيقلب كل اطوار حياته ، ويترك ثورة مستعرة في نفسه ، ثم تشتعل هذه الثورة وتزيدها الايام ضراماً ، فلا تهدأ الا بعد ان تأكل نفسها ، وقد ألسنة شواظها الى نفسهـا ، فتهدأ الثورة بثورتها على ذاتها... فكان اول مـا شغله من هذا الكتاب الجديد شخصية صاحبه المتجلية في كل حرف من حروفه

وهو الذي يقول: « انا من قراء « شوبنهور » ممن يدركون انهم سيتلون شوبنهور من فاتحته الى خاتمته، وسيصغون الى كل حرف تهمسه شفتاه. ان ثقتي به ثقة عمياء ما زادها كر الايام الا ثباتاً »

اثرت في نيتشه تعاليم « شوبنهور » تأثيراً ظهر في كتابه « نشيد المأساة » وعنه اقتبس قواعد كتابه ، فاتخذ الارادة منه كشيء قائم بنفسه ؛ والذاتية في الوجود مصدر كل ألم ، والموسيقى كلغة اصيلة للارادة . وفي الكتاب ذاته يرحب « بشوبنهور » ويحييه تحية العبقرية ، يرى فيه هاديه الى الحقيقة ، ويحلل تأثيره وما يمكن لهذا التأثير ان يفعله في الارواح الحديثة. يقول : « ان الانسان اليوم يتحرى عن ذاته، ولا يفتأ يتحرى حتى تهديه المصادفات الى معلم نافع فيتبعه ، لا يعمل هذا المعلم على تخطيط آثار وتعيين طريق من الطرق المختلفة، ولكنه يعمل على استنقاذه من كل ما يمسك عليه حريته ويحول بينه وبين الوصول الى هذه « الذات» الغامضة المتوارية في احناء كل انسان» ولم يكن معلمه الا شوبنهور ، شاهد فيه للوهلة الاولى ذلك الفيلسوف الصادق المستقيم الذي يتحرى عن الحقيقة في كل ما حبّر وسطر . وفي مدرسة شوبنهور تعلم نيتشه ان يرى الحقيقة كما هي بما فيها من قبح وبما تنطوي عليه من الم . وتعلم ان العبقرية يجب ان تناضل عصرها وابناء عصرها حتى تحمل الناس على الاعتقاد بوجودها . فهي حين تناضل العنف وتحارب الرذيلة، تحاول في هذا كله ان تطهر ذاتها من كل الاوضار التي دخلت

عليها من مجتمعها . واخيراً وجد نيتشه في شوبنهور تعريفه لحياة البطولة ، واما الحياة السعيدة فهي ضرب من المحال . ولكن الذي يمسح الانسان بسمة الجلال هو ان يعتنق حياة البطولة، وان يقضي وجوداً تزينه الرجولة. لا تحفل بان تكافأ على حياتك، فخير ما تكافىء به نفسك ان تكون عظيماً ظافراً . ذكراك تبقى حية ، وانت تجد تجيد الابطال وارادتك تثب من خطر الى خطر ، وتصعد من قدر الى قدر ، حتى تتلاشى في « النرفانا » وهكذا خال نيتشه انه وجد في شوبنهور روح « ديونيزوس » التي تعتمد على الارادة وحدها .

الغزوة الرابعة

وهناك صداقته القديمة للموسيقي الفنان « ريشارد فاغنر » هذه الصداقة التي يعود عهدها الى ايام الحداثة ، ما عمرها الا اعجاب نيتشه بآثار هذا الفنان اعجاباً تسامى عن اعجاب فنان بفنان الى امتزاج انسان بانسان ؛ فقد تقاربا وتعاشرا زمناً طويلاً من الزمن ، كانا خلاله مثلين للثقة العمياء والمودة الراسخة ، وظلا ثابتين على هذه الصداقة حتى شاءت الظروف ان تفرق بينهما ، فمضى « فاغنر » الى « بايروت » حيث اسس داراً للتمثيل ، فكان نيتشه يعوده بذات الاعجاب ؛ وفي احدى مطالعاته الاخيرة وصف « فاغنر » كبطل من ابطال العبقرية على النحو الذي ذهب اليه في معلمه « شوبنهور » ، ولكن هذا ادى رسالته عن طريق الفلسفة ، وذاك يؤديها عن طريق الفن

بأسلوب حي يمازجه شيء من الغموض . هو ذلك العبقري « الديونيزوسي » الذي لا يستطيع ان يعبر عن عالم عواطفه الزاخرة في نفسه بطريقة الكلام والبيان الناقص ، فهو عبقري جمع اليه جملة فنون متصاحبة ، فيه براعة الممثل ، وعبقرية الموسيقي ، وسمو الشعر ، تساعده كلها على التعبير عما يخالج نفسه ويغشى حسه . وقد كان هدف « فاغنر » من اقتراحه ادار التمثيل ان يخلق درامة موسيقية يحيي بها عهد المأساة عند اليونان ، وان تحقيق هذه الدرامة ليعد اول محاولة من نوعها في تاريخ ادب الغرب الحديث ، لانها محاولة لا ترمي في الحقيقة الا الى احياء العبقرية اليونانية الهامدة ؛ ولو ان هذا العمل قدر له الانتصار والبقاء لاعتبر طليعة صادقة من فجر جديد في تاريخ الانسانية . ولكن نيتشه بعد انجازه ما كتب بأسابيع قفل راجعاً الى اهله ، وقد تراكم عليه اليأس والضجر ، فجعته الايام في احلام صباه ، وانتصر فيه اعجابه « بفاغنر » على كل شيء . هذا نيتشه الذي كان قذفة كل خاطرة طفق يدنو من استقلاله الفكري الذي قهره عليه سلطان هذين المعلمين وهو احد المتعصبين لافكارهما وآرائهما واحد العاملين على بثها لانها في اعتقاده اكمل ما جاد به المثل الاعلى . ولكن نيتشه اخذ يعمل بينه وبين نفسه على الانفصال من قيودهما . وقد عرفنا كيف انفصل عن « شوبنهور » في مسائل واضحة من مذهبه ، فقد اصبح يرتاب في كل ما ينطوي عليه هذا المذهب من المسائل التصورية ، وفي الخاصيات التي يعزوها صاحبها الى الارادة ، وفي الارادة التي يزعم صاحبها انها كنه

اكتناه الكون ، وفي الشيء القائم وجوده بنفسه ، وبعد قليل حمل على التشاؤم الذي يدعو اليه « شوبنهور » فأبى الخضوع والاستسلام وابى الجنوح للسكون الفلسفي . وبهذا قضى على فلسفة الحكمة « الراكدة » اللابسة لباس اليأس . هو يريد الحقيقة مهما كان ثمنها . ولو كان للعلم فوز في تضحية بني البشر لفعل . ويمدح الحكمة الممزوجة بالمأساة، التي تكفر بعلم ما وراء الطبيعة ثم تخضع المعرفة لها لتخدم اجمل شكل في اشكال الحياة، ويعيد للفن حقوقه التي انتزعها العلم منه، هذه الحقوق التي تخول الانسان حق التخيل وحق التوهم ، ولم يكن حكم نيتشه على « فاغنر » بأقل جرأة وقسوة . فقد اخذ يبدي فيه مواضع ضعف يحسبها الناظر ذخائر جمال، ويظهر ما يطغى على روحه من روح الفوضى والاضطراب ، ويقارن بينه وبين « باخ وبتهوفن » اللذين هما اصفى مزاجاً منه ، واصبح في شك من قيمته الفنية التي تدس فيه الموسيقي والشاعر والمفكر. واخذ عليه تشبثه بالقديم وعودته الى الآراء القديمة ، منها توقانه الى القرون الوسطى وميله الى المسيحية والذهول البوذي وحبه للأشياء العربية . انه اصبح في شك من اي تأثير يحمله « فاغنر » الى الشعب الالماني . هذا نيتشه الذي كان يرى في موسيقى « فاغنر » المثل الاسمى قد انقلب عليها وجحد بها ، فما هي علة هذا الانقلاب ؟

يقول نيتشه جواباً على هذا السؤال اثناء تحدثه عن شوبنهور: اننا نخاله فيلسوفاً . ثم نرى : اذا خدع في الاسلوب الذي

ابدي به ملحوظاته فان هذه الملحوظات لا يشوبها خلل ، لان منازل هذه الملاحظات لا خلاف فيها ، فهو كفيلسوف يعلم قد يكون مخطئاً مائة مرة . ولكن شخصيته ذاتها لا تظهر الا على حقيقة مرتدية ازياء الحقيقة ... وههنا مجال النظر والتأمل ، ففي الفيلسوف شيء لا تنطوي عليه الفلسفة ، هذا الشيء هو الذي يخلد الفلسفة ويولد العبقرية . وفي هذا الرأي يكاد يتبين لنا هوى نيتشه وميله لهذين الرجلين ، فهو قد مال اليهما بآثارهما والتعصب لهما ، ثم انقلب هذا الميل والتعصب الآثار الى اعجاب مجرد بالشخصية ، فاحبهما كرجلين عبقريين منفصلين عن آثارهما ثم عمل على ان يتجنب كل ما يعكر هذه الصداقة او يشوه اسبابها ، ولكنه اضطر الى نقد ما لا يوائم فكرته نقداً عاماً . واخيراً اقتربت تلك الساعة التي وجد فيها ان الفواصل التي تفصله عنهما هي اكبر من ان تخنق ، وألفى ان في سكوته عنها خيانة لنفسه ، فبدأ ينقد آثارهما ويظهر اخطاءهما . وهو في كل ذلك لا يحاول ان يفهمهما بحقيقتهما ولكنه عامل على تفهم نفسه بالاتصال بهما ؛ وهو بدلاً من ان يصور نفسه بصورتها رأيناه قد حول صورتها الى صورته ، واذاب ذاتهما في ذاتـــه ، كالبحر الذي يحول فيه الفرات أجاجاً . وصورة « شوبنهور » التي رسمها نيتشه ليس بينها وبين صورة الفيلسوف الحقيقية مشابهة ؛ وانما هي صورة للمثل الاعلى للفيلسوف « التراجيدي » كما يتخيلها نيتشه . وهكذا قل في صورة « فاغنر » وهو دائماً لا يعبر في كل ما يصف ويصور الا عن حلمه الباطن . الآن تبين لنيتشه ان هاوية سحيقة تفصل

بينه وبين « شوبنهور » و « فاغنر » ، وقد تقبل مذهب التشاؤم من قبل ليتخذه سلاحاً يصرع به التفاؤل الخادع ، وقد بدا له ان نقد الوجود نقداً مصحوباً بالتشاؤم هو من واجب كل نفس خالصة ، ولكنه لم يتقبل تلك النتائج السلبية التي استخلصها « شوبنهور » من نظراته ، ولم يتقبل العدم وسلب الحياة كغاية منشودة في الوجود. ولكن هذا المذهب العدمي الذي يستقر فيه الخطر ، قد لا يكاد يقل مذهب التفاؤل المطلق عنه خطراً ، فان جيلنا اذا نمت فيه الروح الراضية القانعة والنزات الخانعة ، كان هذا منه علامة الوهن والضعف والانحطاط ، تنشأ في جيل تعب من الحياة وتصدع من الالم، ويرتاح الى الراحة المتمثلة في العدم، وهكذا بدرت لنيتشه مسألة جديدة شغلته طيلة حياته .

... ما هو منشأ هذا الانحطاط الحديث ؟ ما هي العلامات التي ساعدت على نشره ؟ وما هو داء العدمية ؟ وما هو دواؤه؟ لم يكد يبلغ هذه النقطة حتى وجد ان حكمه على ذينك المعلمين قد تحول من الكل الى الكل . واذا رفيقيه اللذين كانا عدته في مكافحة التفاؤل يعدوان خصمين عنيفين له ، تنقل عداوتهما عليه وعلى المجتمع. وادرك في النهاية ان ثباته على صداقتهما فيه خطر عليه كبير . فاذا لم يبرأ من هذه الصداقة ويخلص من تأثيرها ومرضها فانه لن يتاح له ان يقف امام نفسه واعياً همها واهماً نجواها لابساً لباسها، ولن يتاح له ان يأتي الناس بانسانه الكامل الذي اوحته اليه تعاليمه الجبارة فيما درس من عبقريات اليونان،

فنفض عنه هذه الزخارف الصبيانية التي يتحلى بها اسلوب «فاغنر» ووجد فيه ذلك الدليل الامين الذي ينفع المفكر الذي يبغي ان يدرس هذه النفس وينحدر الى اعماقهـــا . فهو اعتنق «مذهب «فاغنر» بادىء ذي بدء ليصل الى هذه النفس . والآن يحاول ان ينجو من حبائل هذا الساحر «ان مـــا يشغلني الآن هو الشفاء... لم يكن «فاغنر» الا علة من عللي !» على ان الاندية الادبية قد ارتاعت لهذا الانقلاب ولهذه المفاجأة . واجمعت كلها على الحملة على نيتشه العقوق الذي رأت فيه الناكث للعهود . واخذت الاندية تبعث بتأويل شتى لمعنى هـذا الانفصال وكلهـا ازمعت القول بان نيتشه كان في الحـــالة الاولى خير من تفهم «فاغنر» ووقف على دقـائق مذهبه الفني وكان تحليله الاول له خير ما اخرجه ناقد محلل على هذا الفنان. وعللت بان ما عراه من مرضه العقلي الذي ساقه الى قطع علاقاته مع المجتمع ، هو الذي ساقه الى التنكر لاصدقائه ، ولكن هذا التعليل تعليل فاسد يفسد على الرجل كل فلسفة وهو الذي كتب نظراته واعطى مذهبه حراً مفكراً مختـــاراً . لم يكن مجنوناً ولا مخبولاً يوم طعن «فاغنر» ونال من مذهبه . اما اصدقاء نيتشه فهم يعزون ذلك الى انخداع نيتشه بهذا الفنان . وهنالك آراء تقاربت ، تجيء طوراً مع نيتشه وتارة تحمل عليه . اما الذين يمقتونه فهم ينقمون منه هذه الشخصية او هذه الانانية التي قادته الى نكران الصداقة ، زاعمين ان شخصية نيتشه لا ترد ان ترى ظلاً لشخصية غيرها ، وشخصية نيتشه في الحقيقة شخصية ذاتية قوية ، لان

الرجل يرى ان الشخصية هي كل شيء ، يضحي في سبيلها بكل شيء ، ولا يضحي بهـــا في سبيل اي شيء . فوجد نيتشه ان شخصيته تكاد تفنى في شخصية « فاغنر » وهو الذي التصق به واتصل بمجرد الوصول الى نفسه وتفهمهـا . ولم يجعل منه رسولا هادياً ولا مثلاً سامياً . . وهكذا اخذت هذه الشخصية الغـالبة تضيق عليه ويضيق بها ، وتخفي صوته الحقيقي ، فليضح بكل شيء في سبيل ذاته ! ولعل نيتشه ادرك ان القوم سيختلفون في تعليل هذا الانقلاب فكتب هذه الرسالة التي تنطوي على صفاته ولون تفكيره :

« كنا صديقين غريبين . . . كنا كمركبين ، كلاهما له غايته وله سبيله . . . قد نتلاقى ونرفع اعلام التحـــاء كي فعلنا . . . وفي هذه اللحظة ذاتها قد رسا المركبان في مرفأ واحد ، يسترهما شعاع واحد ، كأنهما مقدمان على هدفهما ، وكأن هذا الهدف واحد عندهما ، ولكن الضرورة التي لا ترد قد تقذف بمركبينا قذفة جديدة نحو بحار مختلفة وانواء متباينة . وقد نتراءى ولكن لا نتلاقى . كم لوحتنـــا الشمس والامواج ! نظل غريبين لان الشريعة الغالبة تريد ذلك . . ولكن صداقتنا القديمة تبقى شيئاً قدسياً . . وهكذا نريد ان نؤمن « بصداقتنا » في النجوم » حتى في العهد الذي يجب ان نكون فيه خصمين على الارض » أليس في هذه الكلمة ما يجعل نيتشه بريئاً شريفاً ازاء خصميه وانصار خصميه ؟

نيتشه الفيلسوف

لم تكن نهاية عمر نيتشه الا « معركة » متصلة الاسباب ، يشنها صاحبها على الداء الذي خامره ، يصرعه حيناً وحيناً يصرعه . وهو خلال ذلك يطول صراعه ويمتد نزاعه ، يحول الداء بينه وبين اتمام عمله الذي تصدى له ، ولا يشعر بالمجد الذي صار يركض اليه في احتفاء العالم . هذه الفلسفة الغريبة الشاذة قد شك عند مناقشتها النقاد الذين لم تتسع لها عقولهم ، فقالوا عنها : « انها فلسفة طائشة جاء بها مجنون ، قد نخض بها الجنون قبلاً من قبل ! » وهؤلاء قد ظلموا الرجل ميتاً كما ظلمته الطبيعة حياً ، على ان شذوذ هذه الفلسفة لا يدعو الى حسبانها فلسفة مجنونة ، فقد كتبها صاحبها واعياً ، وغالب بها ألمه قبل ان يستحيل الى جنون ، ومهما ذهب النقاد في تعليل جنون نيتشه : اهو جنون اكتسابي ام وراثي ؟ فان الرجل قد استطاع بما اوتي من عبقرية سامية ان يحدث في صفحة الحياة امواجاً عنيفة بالحجر الذي القاه. وبهذا لا ينبغي لنا ان نعتقد ان الجنون أثر

في آثره ، وهو الذي دل على وعي خـــارق في احدّ نوباته واعنف آلامه .

ارادت نيتشه آلامـه ، وعمل على تحملهـــا غير مستثقل ولا مستضعف ، يحولها الى الحاجة التي يريدها ويستخلص منهـــا ما يلائم حياته ، فـاذا لم يكن هذا الرجل جديراً بالرأفة والشفقة لانه لا يريدهما ، فهو جدير بالاحترام . والبطل يحترم مستلئماً ومكفناً .

اول نعمة احتسبهـا للألم انه انقذه من مهنـة التعليم ودراسة اللغات المندثرة ، اذ اخذ يحس ان هذه المهنة ، برغم شرفهـا ، لا تتلاءم والغرض الذي تتوق اليه روحه . فهو فيلسوف قبل ان يكون عالماً بدراسة اللغات . واخذ يشعر بان وفاءه هذه المهنة دفعه الى قتل ازهى ايامه وتعطيل دراساته ، فما اثقل اليوم على ظهره هذه الاعباء ! فجاء الداء وجبره على تحطيم كل حلقة تربطه بالماضي الذي اصبح يعده غريباً عنه وهو منه. فجاء فبدل حياته بحياة ثانية تختلف مظاهرها ، والقاه في عزلة عميقة لا يقرُّ فيهـا الا الى نفسه لانهـــا حرمت عليه الانكباب على المطـــالعة والانصراف الى الدرس فهو اليوم وحيد مع نفسه امام نفسه ، يسمع نداء من كان في اذنه وقر عنهـــا . فرحت اليوم نفسه بعودته اليها ثم بأويته الى العزلة والراحة الخالدة: هذه النفس التي كادت تقتلها الحادثات وتطغى عليها جبلة المجتمع قد نفضت عنهـا الاكفان ورفعت صوتها الرنان « ما تذوق يوماً من السعادة ما

تذوقه خلال ايام دائه ، لانه عاد الى نفسه . وهذه العودة اليها كانت شفاءه . وهذا الشفاء يتلوه شفاؤه المادي ؛ على ان الداء لم يزد نيتشه الا احترازاً في النظر الى مسائل الكون والحياة ، وهو عاكف على التطلع الى هذه المبــادىء الفلسفية ، ولكنه يراها بمجموعها جملة مبادىء هي حقائق بعينها ؛ اطلع اليها كأنها ابنة طبع مبدع وشخصية مبدعة ، ومما ينبغي ان ينظر اليه بعين الاعتبار مسألة تأثير الصحة والسقم في العقل البشري ، واذا كان جسدنا — وهو العقل الاكبر — فالعقل الصغير لا بد متأثر بما نزل بالعقل الكبير ؛ واذ ذاك يسأل السائل : هل هذا المذهب علامة من علامات صحة صاحبه او انحطـاطه ؟ وقد ايقن نيتشه بان السقم زاده احتراسا وانتباهـا من سلطة الاخيلة والاوهام التي تتولد عادة عند من راقتهم صفحة الحيـاة وبهجة الدنيـــا « اجل ! انني ادرك ان الالم لا يحمـــل الانسان الى المقام الاحسن ، ولكن الالم ينحدر بنا الى اعماقنا » والانسان الذي يريد ان يفرض على نفسه قوة يقهر بها نفسه ، تخرج منها ارادته المتمرنة ظافرة كما يصنع الهندي المستسلم لاكوان من العذاب ، او ان يستسلم لزهد مطلق واعتزال كامل وهجر الارادة ، والانسان الذي يتمكن من هذا الامتحـــان يقضيه من غير ضعف ، يتعلم منه ان يتـــأمل مسائل الحياة بوضوح وجلاء لا يخدعه عن حقيقتها شيء ، فهو يأبى ان تصرفه عن حقيقة الوجود هذه التشابيه والخزعبلات المغرية ، وكأن دافعاً للانتقام والثأر من الحيـاة يتحرك في طوايا نفسه ، يريد ان يستبدل بها آلاماً

تتولد له حتى يقلبها وجها لوجه ، ينحط عن وجهها النقاب ، وينتزع كل زينة خادعة تتوجها لاغواء الناس ؛ وهو اذا احب حياة بعد ذلك فانه يحبها كالعاشق الغيور تحوزه شكوك لامرأة خدعته واصبحت مثار الشك عنده . ويلاحظ نيتشه ان الالم هو الذي جعله متفائلا ، والمرض قد علمه ما يبلغ تأثير الانحطاط الجسماني في عقل المفكر ، ولاحظ به كيف يسعى الالم الى قهر عزة العقل الفلسفي ورد هذه العزة ضعفاً وذلة وحزناً وكآبة ، وادرك ما هي المواضيع والزوايا المهاوية التي يتجه اليها عقل المرضى والمحطمين نفسياً وراء ما يختلف عليهم من قلقهم وكآبتهم . وادرك بعد هذا كله ان كل فلسفة تضع السلم فوق الحرب ، وكل فضيلة تعطي السعادة تحديداً سلبياً ، وكل علم من علوم ما وراء الطبيعة يرى ان في مراحل الاعتدال والراحة التامة والامل النهائي في عالم خير من هذا العالم ، وفي برزخ غير هذا البرزخ ، يرى في هذا كله حداً للرفعة والسمو ؛ ان هذه الفلسفة مهما كانت مظاهرها فهي تحمل طابع الفساد والانحطاط ؛ وآمن بانه فهم ان كل هذه المذاهب الداعية الى التشاؤم والركون المطلق تدل على ان اصحابها وواضعيها كانوا في حالة مرض عضوي ؛ ولما اراد هذا المريض ان يشفى ركن الى التفاؤل ؛ وقد نفعه ايما نفع بالوقوف على اسباب التشاؤم ، فانكب على الداء يكافح ما يحوي جسده ونفسه ، عاد متفائلا . وعادت اليه العافية . الا انني اكتشفت حياة جديدة ، اكتشفت نفسي ، انني قد جرعت الاشياء الكبيرة كما رشفت الصغيرة منها ، وجعلت من رغبتي في

الشفاء والحياة كل فلسفتي. حذار جميعاً ! ان الاعوام التي انحطت فيها حيويتي هي الاعوام التي طلقت فيهـــا تشاؤمي ، وغريزة الوقاية هي التي حرمت عني فلسفة اليأس والفاقة » .

كانت أولى مآثر نيتشه اللامعة في الفلسفـة « نشأة المأساة » فهي المثل الاعلى الذي وجده في البطل « ايشيل » والفيلسوف « شوبنهور » والفنان « واغنر » ، وفي اخريات ايامه جدد نيتشه العهد لتلك الاعلى الذي تكرر في « السوبرمان » ـ الانسان الكامل ـ وبين هذين العصرين تمتد هاوية عميقة تفصل بين هـاتين القمتين : عصر سلب ونقد مفرط . ان نيتشه قد عجل بالبناء وكأني به قد شعر بأن مواد بنـــائه لم تكن صلبة بالمقدار الذي يجب ان تكون عليه. ألم يحس في نشأته الاولى ان في اصول « شوبنهور وواغنر » ما لا يمت باصوله ولا يلتقي مع فكرته ، فعمل على اقتلاع ما لا يتصل به واستخلاص ما داخل فكرته مما لا يوائمها . وفي العصر الثاني رأيناه يقتفي سبيله الذي انتهجه في البدء بعد ان حطم ما حطم من قيم فاسدة ونظم معقدة دون ما رأفة ولا شفقة . وبهذا انتقل من مرحلة السلب الى مرحلة الاثبـــات ، واستبدل جرأة الناقد بذهول النبي . وكان من آثار ذلك العهد الاول « اشياء انسانيـة » و « آراء مختلفة » و « المسافر وظله » و « فجر » وكلها سطرت يوم كانت الحادثات تهد صحة نيتشه ، وكلها وليدة ذلك الحذر الاعمى من الوجود ، هذا الحذر الذي ولده الداء في نفسه ، فالريح التي تهب حوله باردة قـاتلة ونيتشه

يلوح كالمهدم العاتي الذي زال من صدره عامل الاشفاق ، يعمل على تهديم اسوار الشرائع وتحطيم ابراج الاخلاق ، ففي كتابه « اشياء انسانية » يحارب التشاؤم ويسطو على معلمه « شوبنهور » جاحداً مذهبه ، كافراً بتعاليمه ، لا يؤمن بان الارادة شيء قائم بذاته ، نافياً القول بامكان « شيء يقوم بذاته » يقاتل عاطفة الرأفة والشفقة ، ويرذل فضيلة الزهد ، هذه الفضيلة التي تجرد الانسان من شخصيته وانانيته ، وفي هذا الكتاب صبح لا يرى غاية الانسانية توليد العبقرية كما جهر من قبل ، ولكنها بمجموعها تسعى اليها . وفي كتابه « المسافر وظله » يعلن ذلك الظل الذي يلحق الاشياء حين تشرق عليها شمس المعرفة ، ويعتقد ان الاشياء لا تدرس واضحة جلية عندما يحدد دارسوها دراستها على ضوء المعرفة « المثالية » لانه لا يبدو اذ ذاك من الاشياء الا اجزاؤها المضيئة ، اما الاجزاء القاتمة فتبقى بعيدة عن نظر المحتلي ، وهكذا ينبغي المفكر الحقيقي الذي يرغب بان تكون له فكرة تامة عن الحقيقة ان يتأملها عن وجهها الخفي . وفي كتابه « فجر » يخضع نيتشه لنقده مسألة « القيم والنظم الاخلاقية » التي يقدسها الناس ويحترمون قواعدها . هو يرى ان الايمان بالواجب ليس بنظام سماوي ولا بتعليم اوحته السماء على البشر ، وليس هنالك قاعدة لتمييز الخير من الشر ، وهذه الشريعة الاخلاقية التي تجبر الانسان على ان يكون صادقاً امام نفسه في كل شأن ، قد تنتهي بالاضمحلال ، فقد يغدو الانسان بالاخلاق رديء الاخلاق ، كما يغدو بالدين زنديقاً ،

لان اخلاصه لعقله يزجيه الى ان يقذف بنقده الاخلاق ذاتهـا ، وان يكون في ريب من نظمها .

والمثل الذي استخلصه نيتشه من الوجود اصبح يدنو الآن من المثل الواقعي ، فقد يرى ان كل كائن في الثلاثين من اعوامه الاولى تتوالد فيه حركة قد تحتاج الانسانية الى ثلاثين الف سنة لتحقيقها . الانسان الاول ينشأ في حداثته مؤمناً متديناً ، ثم فاقداً لايمانه بالله والخلود ، مأخوذاً بما يزين له العلم النظري ، ثم يفقد العلم النظري تأثيره ، حين يعي لا يشبع نفسه ولا يكفي عقله . وفي النهـاية تستيقظ فيه الروح العلمية فتقوده الى دراسة التاريخ والطبيعة درساً صحيحاً . وفي انسان العلم وفي الروح الحر المفلت من كل وهم زائل والمنعتق من كل اعتقاد باطل ، في هذا الانسان يرى نيتشه الانسانية المتسامية . فالروح الحر هو متشائم يعتمد على عقله ، وهو مفتقر الى صحة ادبية قوية لا تني فيهـا ، تعمل على الحيلولة بينه وبين الاستسلام الى اليأس والفنـاء ، وليس من السهل على الانسان ان يزق عن جسده اثواب الخطأ الملتفة عليه في كل جانب ليرى الحقيقة ماثلة امـام عينيه ، « فالحياة الانسانية غارقة بكاملها في الاخطاء » ، وليس في استطاعة الفرد ان ينتشل نفسه من هذه الهاوية اذا لم يكن خصماً قاسياً على ماضيه ، كثير السخرية من الاهواء التي تدفعنا الى الايمان بالمستقبل وبالسعادة التالية » ، وبهذا يستطيع اذا كان جريئاً صافي الطبع ان يجد في العلم مـا يعمل على استنقاذ

روحه من اليأس ، فان المعرفة المصحوبة بالتشاؤم تنقذه من السأم الذي يأكل قلوب سواد الناس. حتى اذا قدر ان يتحرر من كل ما يحترمه الناس زادته متعة بالاشياء طرباً وجمالاً ، فهو يهوى ان يحلق فوق الاضطراب البشري لا يخفق قلبه رعباً فوق العادات والاوهام والعقائد ، هو يحيا لكي يفهم فهماً صحيحاً ، وان اسمى مكافأة عنده هي ان يتفهم في نفسه وفي غيره من الاكوان هذه النواميس الضرورية المتجلية في حركات الكون ، وان يستدل – كالمنجم – على مستقبل الذرية البشرية .

ونحن نعتقد أن مثل هذه الحياة التحليلية تمثل هذه العبارة باعثة تعلمنا خالية من اللذة؟... انك لم تدرك ان السحب الثقيلة، سحب الاحزان، هي انداء فخمة ترضع منها افاويق عذبة حلوة تقبّل الشيخوخة؛ فتفهم بنفسك كيف تلبي نداء الطبيعة ، نداء هذه الطبيعة التي توجه العالم الى السرور . هذه الحياة التي تخذت الشيخوخة ستاما اتخذت الحكمة ذروتها... وهل الحكمة الا ذلك الشعاع المنبثق من الفرح العقلي ؟... الحكمة والشيخوخة عنصران تراهما على قمة طود واحد – هكذا شاءت الطبيعة .. قد تقترب الساعة فلا تبتئس ! ولتكن حركاتك الاخيرة – حين يتراكم ضباب الموت – جهداً تبذله وتوقاناً تزاعه الى النور . لتكن تنهداتك الاخيرة انشودة انتصار الحكمة .

ومنذ عام ١٨٨٢ بدأت صحة نيتشه تتبدل تبدلاً محسوساً على انه ثابر على نضاله ومحـاربته لعقائد جيله حتى النهاية . فكتبه

الاخيرة انما هي غارة شعواء على المسيحية ومـــا تحمله من زهد وتقشف . ولكن هذه الصيحات التي يرسلهـا قوية عـالية اصبح يمازجها قليل من الالحان العاطفية ؛ الحان نشيد الانتصار . عاد نيتشه الى صحته بعد ان قضى ايام علة وسأم ، يرتقب الموت في كل فجر يتنفس ، وفي كل ليل يتعسعس . عاد اليه رجاء جديد وتنفس جديد ، والارض ارحب بكثير من كفة الحابل !... يقول في خاتمة كتابه (العلم الطرب) « ان هذا الكتاب هو صيحة طرب بعد ايام طويلة مكفنة بالبؤس والعجز . هو اغنية مرح تتهادى فيها اصوات قوى بعثت بعثاً جديداً ، والحان ايمان واسع بالغد ومـا بعده ، يستقبل مفتوح لي بحمل طيه حوادث قريبـة ، ينطوي على بحـــار حرة وغـــايات جديدة تجذبني نحو ما استطيع ان ابلغه واقدر ان اؤمن به » وهكذا تقشع من سماء نيتشه سحاب اليأس القاتم ، فبانت له سماء صافية مضيئة. رحل الشتـــاء المتجمد ، وخفق قلب ربيع جديد . وفي هذه الخطرات الجديـدة عميمت عليه عـــادة الشك في قيمـة ذلك الروح الحر الذي بشر به وجعل منه مثالاً عاليـــاً . ان هذا الروح الحر عابس ينقصه روح الطرب ، وقد جعل منه الالم كائناً كئيباً ، وهذا الروح لا يزال ثقيلاً لم يتعلم ان يرقص وان يلعب ويفرح حراً طرباً وثابا على امواج الحيـــاة . ان هذه الفكرة خلقت لنيتشه خيـــالاً جديداً انطوى على الصورة الرائعة التي وجدها في نبيه « زراداشت » هذا النبي الذي قضى في الصحراء عشرة اعوام ، مرتاحاً لعزلته وفكرته ، ثم نزل الى النـــاس

يلقنهم المدينة الجديدة ، ديانة « السوبرمان » والعودة الخالدة ، وهو يجمع حوله في مغاراته المنعزلة نماذج متفاوتة صافية الانسانية المتألمة السامية . ان رجال الرغبة الكبيرة والاحتقار الكبير والسأم الكبير ، هؤلاء الرجال يجب ان يفسحوا مكاناً للسوبرمان الذي يشفيهم من تشاؤمهم ويضيء لاعينهم آفاق المستقبل ، ثم يموت في اللحظة التي يبلغ فيها اعلى ذروة الحكمة ، في اللحظة التي تبلغ فيها شمس وجوده سمتها الاعلى في الهاجرة الكبرى ، معلناً بموته انتصار مذهبه . وقد رأينا توصلاً الى تحليل فلسفة نيتشه تحليلاً منطقياً ان نقسمها الى قسمين : الناحية السلبية ، وهي تنطوي على نقد الانسان الحالي ونقد نفسانه وغريزته ، والناحية الايجابية ، يبحث فيها السوبرمان وعودته الخالدة ، وبهذا تبدو افكار نيتشه مرصوفة ضمن نظام مذهبي لم تعرف به من قبل . لان هذه الافكار في الآونة الاخيرة لم تثبت على حال معهودة فهي سريعة التبدل وسريعة التنقل . ونيتشه نفسه لا يريد ان يكون فيلسوف مدرسة ... لان الحقيقة عنده لا خلاف فيها . على انه لم يحجم عن مهاجمة الآراء التي يراها فاسدة بادلة باهرة وحجة منطقية . « الا ان غريزتي تريني في هذا الانسان او في هذه الكتلة من الناس جماعة منحطة تدعو الاحتقار ... وفي هذا المذهب او في هذا الايمان جرثومة مرض ... اني احاربهم واكافحهم كما يكافح الخطر والمرض ، فاذا صح اني انصر مذهباً حياً وخصومي ينصرون مذهباً فاسداً فالنصر لا ريب معاودي ، وفي الحالة المعاكسة لا يأتيني الا الخسران !

وبما انني لا اريد الا شيئاً واحداً هو انتصار الحياة ، اراني اطرب بانكساراتي كما اطرب بانتصاراتي وكل ما وراء ذلك عندي سواء ، اوليس من العبارة ان نشيد مذهباً منطقياً لفلسفة نيتشه فنحن هذه البوادر ، شأن فلسفة « كانت وشوبنهور » وليس المنطق كبير شأن في هذه الفلسفة ؟ على ان نيتشه اذا صح حدسي كان يأتي المسألة ويدرسها من جوانب مختلفة ، يتلقنها ثم يدرسها ثم يفحصها حتى تحين اللحظة التي يطلق فيها حكمه الاخير . فاذا درست آثاره أثراً أثراً ألفيت ان المواضيع نفسها تطوى وتنشر ومن وراء ذلك عقل نيتشه العظيم . واذا لم يأخذ نيتشه بالمنطق ونظامه الدقيق كما يأخذ به ارباب الفلسفة فليس معنى ذلك ان الرجل خانت احكامه منها ، او ان عقله لم يكن منطقياً . فالرجل حاد الفكر وفلسفته - من حيث المجموع - يربط بينها نظام منطقي دقيق . ولكن صحته السيئة حالت بينه وبين ترتيبها ترتيباً فنياً ، فجاءت مقاطيع مفككة بأجزائها كاملة بكليتها . مقاطيع اودع فيها صاحبها كل نفسه وقلبه .

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

كل جيل او كل حضارة مرتبطة بسلسلة من القيم الاجتماعية تؤمن بان هنالك شيئاً اسمى من شيء وان عملاً افضل من عمل، وترى ان الحقيقة اسمى من الضلال ، وان عاطفة الرأفة افضل من عاطفة القسوة ، وواجب التاريخ البشري هو تعيين هذه المقامات والفصل بينها ، لان هذه المقامات المنطوية على التقاليد الاجتماعية هي التي تسيطر على حياة الافراد والجماعات ، وتؤثر في كل احكامنا ومناقشاتنا . وجدير بها ، والحالة هذه ، ان تشغل عقل الفيلسوف وان تستبد بأكثر عنده وفراغه . نظر نيتشه الى هذه المقامات وتأملها ملياً ، فجاءت نتيجة تأمله ان هذه المقامات التي تتعاقب عليها الحياة الاوربية اليوم هي مقامات فاسدة يجب تكسيرها لانها لا تصلح للبقاء ، وبهذا يتبدل مجرى حياتنا ، وتبيد هذه العكازات التي تتوكأ عليها احكامنا وافكارنا .

وقد نرى نيتشه - في احدى نوبات ألمه العنيف قبل ضياع عقله - ينذر بخراب مروع لهذه البشرية « انني احلف لكم بان الارض ستتلوى متشنجة خلال عامين اثنين... انني بنفسي قضاء وقدر » ان الانسان الحالي يضع في قائمة « القيم الاجتماعية » عدداً من القيم المطلقة العالية التي لا يمسها سوء، ولا يشرف عليها عقل، ولا يتطاول اليها نقاش . وبواسطة هذه القيم يسعى الى تبين الحقيقة . من هذه القيم المعروفة مثلاً عنصر الخير والحقيقة . وقديماً وحديثاً نرى ان عبادة الحقيقة والصدق هي رأس عكازنا وايماننا . ناهيك ان المفكرين انفسهم وقفوا متهيبين ازاء مسألة الخير والشر حين عرضت لهم ، وقد ظلوا مترددين امامها ، راعين للتقاليد التي توارثوها عنها . « فكانت » قد افترض وجودها . و « شوبنهور » وجد ان العقدة الاخلاقية انما هي عقدة عامة ، جميع الناس فيها سواء. « فلا تسيء لاخيك، وأغث اخوانك ما استطعت » . وهكذا تطامن الفلاسفة على هذه العقدة ولم يهزوا شجرتها . وكلهم تجمهروا ليدرسوا رأس الاخلاق وهذا الضمير الخلقي الذي اصطلح البشر عامتهم على احترامه والذي لا يزال يسيطر على الاجيال الحالية . اعلن نيتشه الحرب على هذا التعبد للحقيقة وهذه العبادة لشريعة الاخلاق . وبدلاً من ان يتقبلها قبولاً لا مفر منه ولا وجه لمقابلته بجدل ، رأيناه يقابلها كمسألة يدرس وجوهها ، ويحلل مبهمها ويفترض ما يفترض في سبيل تفهمها ، أليس من حقه ان يتساءل « ولماذا كانت الحقيقة خيراً وأحرى ؟ ولماذا كان الخير

اجدر من الشر بالاخذ ؟ ، ثم حل هذه المسألة بذات الجرأة التي ظهر بها جاعلاً قاعدة الانسان الحر هذه الكلمة المأثورة « لا شيء حقيقي في الوجود ، كل شيء حلٌ للانسان » ، وما هذه الكلمات النظرية التي تتردد بحروف مختلفة واسماء متباينة دون ان يخرج معناها بخروج مبناها الا كلمات ابتدعها الخيال وثبتها الوهم . اما الحقيقة الجديرة بالنظر ، الحقيقة التي ينبغي لنا ان نعرفها ، فهي حقيقة عالم رغائبنا واهوائنا . فكل ما تحتوي عليه حياتنا وارادتنا وفكرتنا هو في الحقيقة نتاج ما فينا من الغرائز الحاكمة . وهذه الغرائز المتفرقة انما تتشعب بها السبل الى غريزة واحدة ، لا ترد الا اليها ولا تصدر الا عنها . هذه الغريزة هي ارادة القوة ، هذه الارادة التي تغنينا لو رجعنا اليها في تحليل جميع مظاهر الحياة التي تحيط بنا ونحيط بها . فكل كائن سواء كان من عالم الحيوان او النبات او الانسان ، انما يسعى الى بسط سلطانه على غيره من الكائنات حتى يخضع له ما يخضع منها . وان هذه الحروب القائمة وهذه الجهود الدائبة ، حيث لا تستقر حياة موجود الا ببسط نفوذها ونشر قواها ، هي الشريعة الاساسية في الوجود ، وفي كل مظاهر الحياة — التي كانت — ترى الغريزة قائدها وهاديها . فاذا رأيت انساناً ما يجنح بطبعه الى حب الفضيلة والفن والحقيقة فهذا الجنوح انما قام بفضل هذه الغريزة الطبيعية التي رأت من خيرها ان تسلك هذا السبيل ، وهكذا قل في الفضيلة الدينية التي تجد بها بعض النفوس اقواتها وطعام غرائزها . وفي الحقيقة التي يضحي العالم في سبيلها بأزهى

عمره تسوقه اليها ارادة القوة التي تعمل على بسط سلطانها ، ولكن الانسان مال الى عبادة ما ابتدعه بنفسه « كمثل اعلى » ليشبع حاجة فيه من حاجاته . فبدلاً من ان يقول : « سأحيا أنا لاشباع غرائزي ، وسأتحرى عن الخير والحقيقة تبعاً لهذه الشريعة حيث تدفعني ارادة قوتي » قال : انما الخير والحقيقة شيئان ينبغي ان يطلبا لنفسيهما... يجب صنع الخير لانه الخير . ويجب نشدان الحقيقة حباً للحقيقة. وحياة الانسان ليس لها قيمة الا بقدر ما تتكر من انانيتها وذاتيتها في سبيل خدمة هذا المثل الاعلى ، فلتقبل اذن كل ميولها الغريزية في سبيل هذا المثل ، معتقدة ان الانانية هي شر كبير ورذيلة خطرة . على ان هذا الانسان نفسه الذي قدر هذا التقدير انما تسوقه غريزة ، لان الغريزة هي قائدة النفوس الى ما تعمل ، ولكن هذه الغريزة غريزة فاسدة. على ان هذه الغرائزية ليست في الناس سواء ، فبعضها معتدلة تعمل على تغذية حياتها وصيانة نموها ، وبعضها فاسدة معتلة تعمل على اخفاء مادتها الحيوية ، وللعلل الجسدية تأثير كبير فيها قد يتدارکها الطبيب قبل ان تضوي الجسد . وهنالك علل « الشخصية » ولهذه العلل أسباب طبيعية ، وبحسب هذه الغرائز المختلفة المسيطرة على الانسان يأتي صاحبها صالحاً او طالحاً ؛ مثلاً عالياً او مثلاً سافلاً . ان هنالك رجالاً خالصي الاجسام والارواح يقولون: « نعم» للوجود ! هم سعداء ناعمون بحياتهم ، وهم ممن يجدر بالحياة ان تخلد لهم . وهنالك رجال منحطون ضعفاء مرضى قد اظلمت غريزتهم وماتت حيويتهم ،

يقولون « لا » للوجود ! يجنحون الى الموت والفناء، لا غاية لهم يتحرون عنها ، وليس لهم – والحالة هذه – ان يتحروا عن بقائهم في الوجود ، وهذه سنّة طبيعية تنطبق على الحياة التي لا تتمرد ، والحياة – في كل صقع – سائرة في طريق التقدم او في طريق الانحطاط . والانسان فيها مثل غرسة ، طوراً تحيا ذابلة يائسة ، وطوراً تتفتح مشرقة زاهية ، تسمو منها فروع عالية .

يقول نيتشه مبيناً نظرته في مجموعة القيم الاجتماعية : « أنا لا ادري اذا كانت الحياة بذاتها جميلة او قبيحة . لا شيء عندي باطل الا هذا النزاع المستمر بين المتفائلين والمتشائمين . وأي انسان في الوجود يحق له ان يقدر قيمة الحياة ؟ اما الاحياء فلا يقدرون لانهم فريق من المتجادلين المتخاصمين . والاموات – وانهم لاجدر بألا يجيبوا – لانهم اموات . فلا احد يقادر على ابداء قيمة الحياة، وانني لاجهل كل الجهل اذا كان وجودي خيراً او عدمي ؟ ولكني في اللحظة التي احيا فيها الآن اريد ان تكون الحياة فياضة مضيئة لامعة في نفسي وخارج نفسي . فأقول اذ ذاك – نعم – لكل ما يجمل الحياة ويجعلها جديرة بان تحيا . واذا تبين لي ان الضلال والوهم يساعداني على تذوق الحياة اقول – نعم – للضلال والوهم . واذا بدا لي ان الصفات السيئة مهما كانت الوانها تساعدني على انتصار حيوية الانسان اقول – نعم – للخطيئة والشر ، واذا اتضح لي ان الألم هو

انجم من السرور في تهذيب النوع الانساني اقول – نعم – للألم ، واقول – لا – لكل ما يمسخ حيوية الشجرة الانسانية. واذا اكتشفت ان الحقيقة والفضيلة والخير وكل ما اصطلح البشر على احترامه من تقاليد وشرائع تضر بالحياة اقول – لا – للعلم والمعرفة والخير »

يبحث الآن نيتشه كيف نشأت بين الناس هذه القيم الاجتماعية ويصور التأثير الذي تركته في روح الرجل الغربي الحديث . نقب نيتشه في اصول المذاهب الخلقية التي تواضع عليهـــا البشر فالفى ان اصولها المتشابهة تعود الى فضيلتين اثنتين توزعت عنهما كل الفضائل : فضيلة الاسياد والـلالات القوية الحاكمة، وفضيلة العبيد والضعفاء الاذلاء. وانك لواجد في منشأ الحضارة الاوروبية هذا العمل الذي ولد هذين المذهبين . فهناك طائفة محبة للقتـال وعصابة من الرجـال المفترسين الذين يسطون على طائفة جـانحة للسلم ، نافرة من الحرب كما هو الامر في الحضـــارة اليونانيـة الرومانية ، التي تلاشت ازاء هجمات الاقوام الجرمانية . ان الرجل الشديد المعتمد على نفسه ، تموج في صدره رغبـة بتعيين قيم الناس والاشيـاء بنفسه . وليست فضيلته الا بهجته الراقصة بشعوره بقوته وكماله . يدعو « حسناً » من كان يماثله شرفـــاً وسيادة ، ويدعو « رديئاً » من يختلف عنه . الخير عنده ما هو الا مجموعة تلك الصفات الطيبة والخلقية التي يقدرها في نفسه وفي اقرانه ، يبهج نفسه ان يكون قوياً قديراً . يعرف ان يخضع

غيره ويخضع نفسه . يقسو على نفسه كما يقسو على سواه . يقدس هذه الصفات عند الآخرين ويحتقر الضعف والجبن حيث ظهرا . يسخر من عاطفة الشفقة والنزاهة ؛ ومن كل الفضائل السائدة اليوم ، لانه لا يراها صفات تليق بسيد . يعجب بالقوة والقسوة والخداع ، لان هذه الصفات تحقق له ظفره في النضال . يحترم الميثاق عند امثاله الاقوياء ، ويجد نفسه في حل مع العبيد الضعفاء ، ينكل بهم اذا اراد نكالاً ، ويسعدهم اذا اراد اسعادهم ، له الامر في امرهم . يبذل روحه في سبيل قائده واميره ، ويكرم شيخ قبيلته ، ويحترم تقاليد اهله . ألا ان الفضيلة الارستقراطية لفضيلة قاسية متعصبة ، ولما كان الشرفاء اقلية ضئيلة في جحافل كثيرة تتمنى الايقاع بها ، فعليهم ان يصونوا صفاتهم الخاصة التي تضمن لهم الفوز ، وتقاليدهم التي اصطلحوا عليها في زواجهم وتربية ابنائهم وارتباط بعضهم ببعض هي من التقاليد العاملة على صيانة ذريتهم من الاخطار . لهذه الذرية الارستقراطية إلهها الذي تتجسد فيه كل فضائلها التي قادتها الى القوة والى هذا المظهر الذي بدت به . ان هذا الاله هو ... ارادة القوة — التي ساقت الزعماء الى السلطة ، وجعلت منهم اقوياء سعداء ، والعبادة التي يقومون له بها هي تفسير ابتهاجهم بالحياة على النمط الذي يفهمون منه انهم جميلون اقوياء . وهذه الفضيلة تختلف جد الاختلاف عن فضيلة العبيد ، والضعفاء الاذلاء ، واذا كانت الكبرياء والبهجة بالحياة ، هي العاطفة التي تروج في صدور الاسياد ، فلا عجب اذا نما في صدور الضعفاء التشاؤم ، ومقت الحياة ، وكره

الاقوياء. الاقوياء يكيد بعضهم لبعض. اما الضعيف الغريب الذي يتصدى لهم فويل له ، لان غريزتهم في البأس والقوة لا تشبع الا بسحقه ! لانهم يعتقدون انهم بما فعلوا اتوا عملاً جليلاً يحق لهم به ان يغدوا على افواه الشعراء اسماء مرددة ، وهم – في ناظر هذا الغريب المغلوب على امره – شياطين وقردة ؛ تحمل الرعب والهول للآمنين . ان جرأة هذه الطائفة وجنونها وقسوتها ، واحتقارها للأمان والحياة واغتباطها العميق بالتهديم وظفرها ، كل هذه الصفات ينعتها اولئك المقهورون بالبربر والبربرية ، وهكذا وجل القوة والبأس والرجولة في مذهب فضيلة الاسياد يصبح رجل اللؤم والرداءة في مذهب فضيلة العبيد . والرديء الشرير – في عرف الضعيف – هو كل من ارتدى رداء القوة والعنف والرعب . والجميل – عنده – كل هذه الفضائل التي يحتقرها الاسياد ؛ الفضائل التي تخفف من شدة الظلم ، وتمنع ارهاق المظلومين وترأف باليائسين المتألمين ؛ فضائل الشفقة والرقة والصبر والتواضع والاحسان فضائله. ان العظيم الذي كان محارباً مخيفاً قوياً في شريعة الاسياد ، يحول في شريعة العبيد هادئاً حليماً ، ويصبح جديراً بالصغار ، لانه بالغ في توانيه عن القتال ، وبالغ في لبسه ثوب المساكين .

والآن لننظر في هذه «القيم» الاجتماعية التي انشأها العبيد ، فان الشريعة المسيحية وفضائلها تولدت في تلك البيئة ، وعصابة العبيد والضعفاء والمنحطين وجدت زعيمها في الكاهن ، ومن هو

الكاهن ؟ ينبغي للكاهن ان يكون « منحطاً » ليمكنه تفهم رغائب شعبه المريض ، وهو بعد هذا يجب ان يصون سلطته وزعامته لتتجه اليه ثقة المتألمين ، ويكون حارسهم الامين المسيطر عليهم ، وإلههم الذي منه يخشون . وهي مهنة تستلزم منه ان يحرس الضعفاء من الاقوياء ، ويعلن العداوة بينه وبين الاسياد . عداوة سلاحها سلاح الضعيف : مراوغة وكذب ورياء . فيحول بنفسه حيواناً مفترساً مروعاً كالحيوانات المفترسة التي يحاربها ، ولا تقف مهنته عند هذا فحسب ، فهو مضطر الى ان يحرس الشعب من نفسه ومن النوازع السيئة التي تتمشى عادة في الشعوب المريضة ، يقاتل بحكمة وقسوة كل ما يخيل اليه انه فوضى او تفسخ او انحلال ، يلمس هذه النوازع الملتهبة ويزيدها ضراماً دون ان يعود ضرر منها على القطيع وعلى راعي القطيع . قد تكون هذه المهنة نافعة من وجه ، لانها تهذب بعض المفاسد ، وضارة من وجهة لانها تقف عثرة في سبيل حركة التقدم الطبيعي . الا نجد ه المرفأ ، المرفأ الامين الذي تأوي اليه هذه السفن المشحونة بالمرضى والمتألمين ، هو الموت... الموت الذي يسكن كل الآلام ويذهب بكل الاوجاع ؟ وهؤلاء الذين اظلمت في نفوسهم قوة الحياة تبقى قوة الارادة عندهم متيقظة تعارك الفناء وتناضل العدم ، وهي التي شوهت معنى الحياة عندهم ، أمست تمدهم بقواعد للحياة جديدة ، وحيل تعمل على تسكين آلامهم ، تخدعهم عن حقيقة ألمهم ، فيحس الكاهن انتقاماً بهذه الغريزة الطبيعية ، فيسرقها ويديرها ويثيرها حتى يجعل منها آلة سلطته

وزعامته ، فيصبح زعيم جماعة لا تحصى من المرضى والمنحطين . وما هو الثمن يا ترى ؟

بين اليهود نشأت ذرية الكهان ، وبينهم هبت ثورة العبيد ، واندلعت نيرانها على المبادىء الارستقراطية . تقموا على المبادىء القائلة بان الصالح والشريف والقوي والجميل والسعيد هم الذين تحبهم الآلهة ، وعملوا على دحضها بمنطق قوي . قالوا ان الضعفاء والعجزة والاشقياء والبؤساء هم الصالحون وحدهم . . . وان المتألمين والتعساء والمرضى والقبيحين هم وحدهم المقربون الى الله ، ولهم وحدهم اعدت مساكن النعيم ، اما النبلاء والجبارون الاقوياء فهم الجاحدون القاسون ، وهم في تلك الدار المخذولون والاشقون . جاءت المسيحية فورثت عن اليهودية هذا الميراث . واكمل الكاهن المسيحي ما بشر به الكاهن اليهودي . وهنا عبر عشرون قرناً وهو الظافر المنتصر . فكان اول مشهد من ذلك الانقلاب مسألة النفس والارادة الحرة المختارة . وفي الحقيقة لا نفس منسلخة عن جسد ، ولا وجود للارادة الحرة ، وقد تكون ارادة بلا حرية ولا اختيار . وانما هنالك ارادات قوية تقوم باعمال ذات قيمة ، وارادات ضعيفة عملها ضئيل ، آراء كالرعد يقصف ، هي في الحقيقة فكرة واحدة ترتدي اثواباً مختلفة . فالرعد ليس بشيء ذاتي يقدر على القصف وعلى غير القصف . انه رعد حين يقصف ؛ كذلك شأن مجموعة القوات المتجلية في الرجل القوي لا تبدو ولا تظهر الا بهذه المظاهر . والعقل الشعبي استطاع بواسطة الافتراض الاختياري

ان يفرق بين الكائن والحادث وبين الارادة ومظاهرها، وافترض ان وراء اعمال البشر ووراء ما تأتيه ارادة القوة كائناً او نفساً هي علة هذه الاعمال . وهذه النفس هي جوهر حر يظهر كيفما يشاء ، ويعمل كما يشاء . وهذا الذي نتلوه « حراً مختـــاراً » اصبح العبد يساويه بالسيد . بل يجعله متفوقاً عليه . وهكذا اصبحت قيمة الفرد لا تتوقف على ما يتكون فيه من مجموعة قواته . وبذا زال عندهم تفضيل القوي على الضعيف بفضـــل منطقهم « لان القوي يعمل بحسب قواه وهو خاطىء ، لان عمله بحسب قواه عمل سيء . والضعيف يعمل بحسب ضعفه وهو ذو حق ، لان عمله بضعف عمل حسن . فالضعيف اذن هو خير من القوي » ويصف نيتشه وصفاً مؤثراً تلك العوامل التي لجأ اليها العبيد الذين تغلي صدورهم غيظـاً وموجدة ، ليحطوا من قدر الاسياد ، وليجعلوا انفسهم الى شهداء وقديسين . هذا هو المثل الاعلى للعبد . فهو يحيا بتلك الدعوات المعزية التي ابتدعها. ولكن اثقال ضعفه الراسية على ظهره ينوء بحملها فيتألم ويشكو ويتململ ، فيجيء الكاهن لا ليبرئه من دائه ، ولا ليقطع اسبابه كما يصنع الطبيب . يجيء لينسي الصابر ما يحـه من ألم وشقاء ، وليبث فيه « مواد مخدرة » ترقد الالم ولا تمحوه ؛ يعفي مريضه ويعطيه مـادة تضعف فيـه القوة الحيوية والعقلية ؛ يُلقي الزهد والتقشف والبلاهة في نفسه وجسده خدراً الى حين ، فيذهل عن ألمه بل يوشك ان ينفك عن كل احساس فيه ، فيغدو هذا الرجل المنحط « قديساً » ، وقـد يحيط الكاهن بالرجل فيجعل منه آلة

تستغرق كل انتباهه وتجعل منه شيئاً يتحرك بذاته ، ويصرفه عن التأمل في نفسه والتفكير فيها ، ويلهيه بالانكباب على بهجة حقيرة يُسهّل عليه نيلها محبة القريب والمحبة والمساعدة المتبادلة ، ثم يعمل الكاهن على ان يصرف « قطعانه المريضة » عن آلامها الذاتية . وازاء هذه العوامل التي اختلقها عوامل اخرى ابتدعها لمصلحته الخاصة . عوامل خطرة مؤثرة ، تنطوي على سموم تنسي المتألم آلامه وتفني فيه قوته الحيوية . وهذا اسم هو الايمان « بالخطيئة » ، اما اصل الخطيئة فسببه دافعان ولدا اختياراً في قلب الانسانية ، وهما الضمير الفاسد ، والايمان بدين مكتوب على الانسان لله . والضمير الفاسد — عند نيتشه — هو نتيجة تشويش في النفس عميق تسيطر على الانسان يوم كان وحشاً معزّلاً ثم انقلب عضواً رئيسياً في قطيع الاحياء ، والحكومة هل هي الا — كما يحتمل الذهن — ظلم مرعب فرضه الاقوياء على الضعفاء ؟ وفجأة وجد المغلوبون على امرهم ان اسباب الوجود عندهم مقلوبة رأساً على عقب . والفوا انهم اصبحوا لا يستطيعون ان يتبعوا بحرية واختيار تلك الغريزة الطبيعية التي كانت تسوقهم . فظلوا يبذلون جهودهم بينهم وبين انفسهم ليقودوا انفسهم بفطنة ، ويضغطون على ارادتهم خشية ان تجازف بالاساءة الى الاسياد ، ويعملون بتعقل وتأمل . ولكن هذه الغرائز هي جزء من قوة لا بد لهـــا ان تبدو مظاهرها وآثارها . فاذا كتب على هذه القوة ان يضغط عليها حيناً حتى لا تخرج عن نفسها باي دافع ما فهي ولا بد مستحيلة الى قوة خفية تعمل عملهـــا في الباطن .

وبمثل هذا التبدل وعلى مثل هذا التحول ولد « الضمير الفاسد » فهو وليد هذا الضغط الباطني الذي تصير عليه الغريزة الطبيعية في الانسان . وهو كالوحش السجين الذي عضه الوحشة وتازعه حنينه الى العرين والحرية والصحراء ، ينهش جسمه بين قضبان القفص . كذلك الانسان الابتدائي الاهلي السجين يتألم بنفسه. وغريزة الحياة الكامنة فيه المقيدة بمظاهرها الخارجية امست تبدو بحالة هيجان باطني . وفكرة الدين المكتوب لله على الانسان هي فكرة قديمة مترددة في الشرائع القديمة . ففي العصور الاولى كانت كل قبيلة تؤمن بانهـــا مدينة بخيراتها الحاضرة للذريات السابقة . وان الاجداد الذين قضوا يصيرون بعد الموت ارواحاً قوية تتابع تأثيرها في الاحياء وتواصل احسانها اليهم . ولكن كل احسان لا بد ان يبذل ثمنه . وهكذا تولد في عقول الناس انهم مدينون بشيء لآبائهم واجدادهم . وهم مضطرون الى تقديم الضحايا لهم جزاء وفاقـاً على دفعهم للأذى والضرّ عنهم . ومن هنا نشأت عبادة الاجداد في فجر كل مدنية . ثم تطورت هذه العبادة قليلاً قليلاً. فالاحترام الذي كان يكنه الانسان لاجداده جميعاً ما فتىء ينقبض حتى ارتكز في الجد الاصلي للسلالة ، ثم نزل هذا الجد بدوره منزلة الاله . وكلما كان الاله قوياً مخيفاً كان شعبه الذي يجله ويعبده اكثر فلاحاً وتقدماً ، وفي الظروف التي تنمو فيها عظمة الاله ينمو ايضاً الشعور بذلك الدين المفروض في سبيل احترامه وتزداد خشية الانسان من قصوره في العمل نحوه . وبوساطة هذا المنطق الفينا ان عاطفة خضوع الانسان

لله بلغت الدرجة القصوى يوم ظفر اله المسيحية بالاوثان. وداست له الارباب وعسكر في مناطق بارزة من اوروبا. فآمن الانسان اذ ذاك بان الدين قد تضخم ، حتى اصبح اجل من ان يوفى . وجد نفسه انه مدين عاجز لا يملك شيئاً والدائن هو الله . فهو والحالة هذه هدف للقصاص الفظيع . والانسان في شدته هذه تحرى عن وسائل كثيرة ليطرح عن ظهره هذا الدين الثقيل . فلام الانسان الاول الذي استحق لعنة الاله . فابتدع «الخطيئة الاصلية» ، وجرم الطبيعة وانكر الغرائز الكامنة فيه ونظر اليها كجراثيم شر وشقاء ، ولعن الوجود نفسه . وجعل رجاءه كله في العدم وفي حياته ثانية . وفي النهاية اعطى المسألة التي ناء بها ظهره طويلاً هذا الحل الغريب : ان الدين المفروض على الانسان من قبل الله هو دين لن يقدر على ادائه الانسان والاله وحده يفي عن الاله . فوجد الاله ان يضحي بنفسه في سبيل حبه للانسان واستنقاذه من دين مكتوب عليه. فقتل انساناً وقرب نفسه قرباناً . وبهذا الفعل الذي أداه اشترى نفوس الذين يراهم جديرين برحمته ورأفته . الرجل ذو الضمير الفاسد يحس في نفسه حاجة مريضة للتألم ، وهو لا يشعر بان هذه الحاجة تبغيها علة حقيقية هي وليدة هذا الضغط القاسي على ارادة قوته ، وانما يدرك فقط انه متعاقد مع الالوهية على دين لا يمكن اداؤه . ومن الحق ان يبدو له ان هذا الدين شديد تهون في سبيله الآلام . فهو يحتمل الشقاء ليهدىء غيظ دائنه العنيف ، وليكفر عن خطيئته . وها هوذا الآن يلتمس العذاب يتذوقه الواناً

ليفي بدين يزعم ان لا نهاية له . يحمل الألم ولا غاية له الا الألم ليطفىء في نفسه رغبة التكفير عن ذنبه. وهيهات ان تشبع هذه الرغبة او تطفأ ! فكرة الخطيئة بعثت مرة ثانية ، واصبحت الآلة التي يتوعد بها الكاهن ، وبها يسيطر على الارواح ، وبها انقادت له جموع الاشقياء ووضع يده على النعاج المتألمة التي ابصرها في الطريق . مضى قدماً الى اولئك المنحطين العاملين بشقاء يجهلون علته يتحرون عن العلة او الواحد المسؤول عن انحطاطهم العارقين فيه . فيوحي الى هؤلاء بانهم هم انفسهم كانوا سبب شقائهم الحقيقي . وانهم ينبغي لهم ان ينظروا الى هذه الآلام كتضحية صغيرة عن خطيئاتهم التي اجترحوها ، فليقبلوها — بطرب — كامتحان اراده الله ، فآمنوا به وقبلوا بهذا الحل منه وتلقحوا برضاً بهذه الفكرة المسممة عن الايمان بالخطيئة . وفي اوروبا اليوم مذهب يضم هؤلاء الخاطئين التوابين الذين يمشون باجسام مريضة واعصاب ساكنة ونفوس ذاهلة ، فرائس لليأس والهذيان ؛ جوعهم دائم العذاب ، تستولي عليهم فكرة الخطيئة والهلاك الابدي . وفي النهاية يجد نيتشه ان التعاليم المسيحية كديانة وكمثل اعلى ، لا تقود الا الى العدمية « Nihilisme » ، يجد انها خلقت عالماً مفعماً بالاوهام المجردة ، وتخيلات عللاً خيالية ، واعمالاً خيالية ، وروابط بين الاكوان خيالية . اسست علماً طبيعياً وهمياً مؤسساً على انكار الاسباب الطبيعية والعلاقات الطبيعية بين الاشياء ، واسست علم نفس خيالياً يرتكز على تفسير خاطىء للحوادث الطبيعية وعلى فلسفة

خيالية ، وبينما كان الرجل المسيحي دائباً في بناء وجود خيالي كان يهدم الوجود الحقيقي ، يقاوم الطبيعة « اصل كل بلاء » في سبيل الاله « اصل كل هناء » ، فولدت الاوهام المسيحية من بغض الحقيقة ، فهي نتيجة انسانية منحطة ، تربو فيها كمية الشقاء على كمية الفرح ، انسانية تعبة سائمة ، متألمة ، تميل الى التشاؤم وعدم الحياة ، ولا تجد راحتها الا في احضان العدم .

ان عمل التاريخ الاوروبي هو ظفر شريعة العبيد على شريعة الاسياد ، لانه قبل تلك الشريعة وعمل على اعتناقها وكفر بهذه الشريعة... وانها لمعركة لا تزال مشبوبة محتدمة عشرين قرناً بين «روما» وارثة الحضارة اليونانية ومثلها الاعلى الارستقراطي الذي هو اقوى مثل واسمى مثـــل تحت الشمس ، واليهودية موطن البغض ومنزل الروح « الكهنوتي » . انتصرت اليهودية ، والنهضة الحديثة التي نشبت في اوروبا قامت في وجهها عثرات وعقبات ، كثورة « لوثر » والبروتستانت ، وكثورة الباستيل في فرنسا ، وانهزام نابليون ، هذه نائبات تتالت فحالت بين بلوغ النهضة غايتهـــا فآلت الى انتصار شريعة العبيد ، فأوروبا الآن غارقة في انحطاط عميق ، يقضي على ما تبقى في عروقها من حياة ، حتى ليخشى ان ينتهقر النوع الانساني الى الوراء فلا يورث بعد اليوم الا صوراً من الخزي والعار . هذه هي شريعة العبيد التي تسيطر على العـــالم تحت اسم « ديانة الالم الانساني » فلنفصل الآن هذه الديانة وما تنطوي عليه ! ان

تحليلنا لعاطفة الشفقة التي يتبجح بها اليوم معلمو الجيل الحاضر يثبت انها ان هذه العاطفة ليست من العدل والجمال على المثال الذي يرون . ان عاطفة الشفقة — في الحقيقة — يتولد منها سرور اناني . اذ نحن نصنع مع الآخرين الخير كما نصنع الشر . غايتنا من ذلك ان نظهر شعورنا بقوتنا ، وتخضعهم لسلطتنا . اما الرجل القوي الشريف فهو يفتش عن كفء له ليبادله النضال ويجني عاطفته إزاء قوته ، وتراه يحتقر الفريسة الذليلة السهل انقيادها ، وتراه ينحرف عن الخصوم الذين لا يجد فيهم اكفاءه وامثاله. اما الضعيف فهو يميل الى الظفر السهل والفريسة الخانعة ، وهل كان ضعيف او شقي يوماً مهيباً ؟ وان الانسان بطبيعته وارادته يجنح الى احسان لا الى شقاء . ان الشفقة هي فضيلة الانفس المتوسطة ، تتدرب عليها دون وازع ولا مانع ، حتى إذا نزلت هذه الشفقة ساحة النبيل اصبحت علامة الانحطاط ، وذهاب الكرامة ، وخساسة الاصل . ان النبيل يكتم آلامه وهمومه ولا يبوح بها. يصرف عن نفسه الارادة الحسنة كما يصرف الارادة السيئة ، والانسان المتألم القبيح قد يكون على حق في كرهه للشهود الذين يبوحون بسر فاقته وقبحه وتعاسته . هؤلاء الشهود لا يستحون ان ينظروا الى ما كان ينبغي له ان يظل خفياً عن العيون ، فيحملون هذا الشقي منة شفقة ما طلبها وما تمناها . ان الشفقة ليست بعاطفة مفيدة فحسب ، بل هي عاطفة منحطة ايضاً . لنتصور ان ديانة الالم قد انتشرت بين الناس فما هي النتيجة ؟ ان كمية الالم تزيد بدلا من ان تنقص ،

ويصبح الانسان مجبراً على حمل آلامه الخاصة وجزء من آلام الغير ، حملاً على حمل ، وبهذا تضعف الشفقة من حيوية الحياة وتجعل من الالم داء سارياً. ناهيك أن ديانة الشفقة تعتاد المذهب الطبيعي السائد حكمه في الاحياء ، وهو بقاء الاصلح والانسب الذي يقضي بفناء الكائنات التي لا يصلح تركيبها للحياة ، وقد أتاها حظ بخروجها ظافرة من معركة الحياة ، وكل ديانة ترمي الى الشفقة هي ديانة تعمل على وقاية العناصر المنحطة ، وعملها هذا هو ما يسوق اليها الفوز في كل جيل، لان الضعفاء والمرضى هم في الحقيقة الفريق الغالب ، بينما أن الانسان الخالص الصافي من كل مثالية هو نادرة من نوادر الوجود ، وقد ثبت في كل الانواع الحية العالية ان الاغلبية فيها هي كائنات منحطة التركيب، سيئة الخلق ، معتلة الألم ، والانسان لا استثناء له من هذا الحكم ، والانسان — بالنظر الى الحيوانات — هو سلالة عالية راقية قابلة للتطور ، وهو لما يبلغ آخر مرحلة من مراحل التطور في الكمال ، وهو لما يزل عرضة للحوادث التي تؤثر فيه وتبدل منه. كما ان معدل الانحطاط في النوع الانساني هو ابرز واكثر منه في سائر الانواع . وديانة الشفقة تعدو عاملاً كبيراً في الابقاء على فريق كبير من الاحياء لا فائدة منه ، لان انتخاب النوع لا يرى غاية له الا الفناء. هي تحفظ مظاهر الفاقة والبؤس، فتجعل الوجود اكثر قبحاً ، والحياة اكثر ميلاً الى العدم . ان هذه الديانة هي جزء من العدمية. انها مهددة للوجود وللنماذج العليا من انسان الوجود . فان مرأى البؤس والألم والانحطاط

والقبح يدعو أرائي الى وجاه العدم ، اما بعامل اليأس من هذا المرأى او بعامل الشفقة ، حتى ليغدو مذهب الشفقة مرضاً شديداً يقضي على طبيعة كريهة ، ويقتل منها قوة نضالها ودفاعها ، هذا المرض الدائب على تذليل الذرية الاوروبية ، وتقييد اصطفاء الانواع السامية ، والحيلولة بين الانسان والسوبرمان . ان انتشار مذهب الشفقة ... في هذا الجيل – دليل على ان الانسان اصبح يزداد خوفه من الالم . اصبح متراخياً ، مخنثاً يخشى كل ما يعكر عليه طمأنينته ووجوده ، لا يحمل الفرار من الالم وحده ، بل لا يستطيع ان يتصور فكرة الالم عند الآخرين ، حتى لا يقدر ان يؤلم الغير عندما يطلب العدل منه ذلك باسم العدل . الرحيم يبسط شفقته حتى على المجرمين والمسيئين « وقريباً يأتي ذلك اليوم الذي يتراخى فيه المجتمع الانساني ويقعد عن معاقبة المجرم الذي يضره » . لماذا يعاقب المجرم؟ ان المعاقبة يرى فيها ضرباً من ضروب الجور . فكرة القصاص وضرورة القصاص تسوؤه . أليس في اقصاء المجرم وغل يديه عن عمل السوء ما يغني ؟ فلماذا القصاص اذن ؟ ان القصاص يضني . اما المثل الاعلى الذي يطلبه «وحش القطيع» فهو جزء ضئيل من السعادة المحققة لكل انسان ، يرافقه شيء من الالم . ان الشقاء – عندهم – شيء يجب محقه . ان نيتشه ... في هذا الفصل وهو خير فصوله – يعتقد ان الجبن والخوف من الالم هما من الصغار والحقارة بمكان . ان الالم هو في الحق معلم الانسانية وهو الذي يحقق احسن نماذج شريفة . « انتم تريدون سحق الالم ونحن نريد ان تكون

الحيـــاة اكثر قسوة واشد رداءة . ان الكائن السامي الذي تفهمونه ، نرى فيه « غاية » ولا نرى فيه « نهاية » . نرى فيه مرحلة يبدو الانسان من ورائها شيئاً حقيراً مزرياً حتى يدرك آخر عهده. اجل ، في مدرسة الالم الكبير، في مدرسة هذا المعلم القاسي يتم الانسان مراحل تطوره . اليس التضييق على هذه النفس الساقطة تحت اعباء الشقاء يزيدها قوة وصلابة ؟ أليست هذه الرجفة التي تنتابها بازاء الحادثات الكبرى تزيد قوة احتمالها وصبرها وثباتها وتحويل المصائب الى دروس مفيدة ؟ كل هذا ألم يؤل بالنفس — في مدرسة الالم — الى خروجها مهذبة نقية ؟ ان في الانسان « خليقة وخالقاً »، في الانسان شيء هو مـــادة وطين ووحل ، لا شعور له ، فضـاء ؛ وفي الانسان شيء هو خالق مبدع ، ونقاش وبهجة فنان وصلابة ومطرقة ، أأدركتم هذه المقارنة ؟ الا تزال شفقتكم تذهب الى ما في الانسان من مادة ينبغي سحقه وحرقه في النار حتى يتطهر منها؟ والى كل ما يجب عليه ان يتألم بالضرورة ؟ وشفقتنا هل تدرون موقعها ؟ انها شفقة علينا حين نقاتل شفقتكم كما نقاتل كل ظاهرة من ظواهر الضعف والجبن ، وهكذا شفقة ضد شفقة » . ويرى نيتشه ان المذهب الديموقراطي علامة من علامات الانحطاط ، لانه مهما تباعدت اصوله وتبدلت مناهجه متفق مع المذهب الديني ، ففي الشريعة المسيحيـة وفي ديانة الالم الانساني يتمثل مـا يتمثل في مذهب المساواة ... مقت الضعيف للقوي ، وجنوح قوي الى حياة لا ألم فيها . ان المسيحية تجعل الناس متساوين اكفاء امام

الله، وتعدهم بسعادة كاملة في الحياة الثانية، كذلك الديموقراطية جعلت الناس متساوين اكفاء امام الشريعة والحق ، وعملت على تحقيق سعادتهم في هذه الدار ، ورجت ان تخلق مجتمعاً يزول فيه التفاوت ويكون اهله في الحق سواء ؛ لا يتمتع احدهم بما لا يتمتع به آخر . حيث لا امر ولا طاعة ، ولا استبداد ولا استئثار ، ولا سيادة ولا عبودية ، ولا غنى ولا فقر . هذا هو المثل الذي تنهض اليه الديموقراطية ، ويدعو اليه اصحابها على اختلاف ملهم ونحلهم ... كلهم يعملون على رفض كل سلطة ذاتية ، ليملكوا لانفسهم كل امتياز . وكلهم يؤمنون بان كل فرد يقدر بل ينبغي له ان يجد سعادته الخاصة في سعادة المجتمع باسره ، وهذه السعادة الاجتماعية يمكن تحقيقها باشفاق كل فرد على المجتمع ، وبالمحبة العامة السائدة . هذه الافكار غرست في عقول ابناء الحاضر غرساً متيناً ، حتى اصبح لا يقوم في اوروبا رجال تقوى فيهم روح السلطة والزعامة . ولن يوجد في عصرنا هذا من يمثل روح نابليون الذي كان ينضوي تحت لوائه الالوف ، يمشي فيمشون لا يسألونه اين يمشي، وهؤلاء من بأيديهم الحكومة اليوم لا يملكون من الحكم الا قليلا ، لان شريعة العبيد رائعة رأسها في كل مكان ، فهم يستمدون الحكم من هذه الشريعة ، لا يحيدون عنها ولا يجدون عنها مصرفا ، فهم خادمو هذا البلد ، هم الجلادون فيه ، وهم منفذو القانون .

وقد بحث نيتشه علاقة الرجل والمرأة ، وهو يرى ان المرأة

ليس لها حق المساواة مع الرجل ، دل على ذلك الحب الذي تنغمس في حمأته الكائنات . فوظيفة الحب عند الرجل غيرها عند المرأة، ومكانة الحب عند المرأة غيرها عند الرجل. فالحب عند الرجل ان هو الا حادث بسيط او غريزة ضعيفة اما الغريزة العنيفة فيه فهي غريزة القوة ، هذه الغريزة التي تدفعه الى بسط سلطانه الى اقصى ما يقدر عليه. ان مناضلة القوى الطبيعية والقوى البشرية في سبيل تحقيق شخصيته هي ما يتطلب منه عصره وجهوده ، فاذا اسلم نفسه الى الحب ، ووهب حياته وافكاره للمرأة التي يهواها يصبح عبداً مقهوراً وجباناً ذليلاً ، تسلخ عنه الرجولة الحقة والحب الحق. يقول زراداشت « كل ما في حياة المرأة هو لغز ؛ وكل ما في المرأة له حل واحد هو الولادة » فالحب اذن هو ابرز ما في حياة المرأة ، وانما مجدها وشرفها يدفعانها الى ان تمثل دور « الاولى » في الحب ، وان تهب كيانها كله جسداً وروحاً للرجل الذي تصطفيه ، وان تفتش عن سعادتها في الانسلاخ عن ارادتها الخاصة . يقول زراداشت « ان سعادة الرجل : انا اريد ! وسعادة المرأة : هو يريد ! » ان المرأة التي تحب ينبغي لها ان تسلم نفسها الى الرجل الذي يجب عليه ان يتقبل هذه المنحة... هذه هي شريعة الحب التي تجعل بين الرجل والمرأة حاجزاً حائلاً وفرقاً بعيداً . خلقت المرأة للحب والطاعة ، وويل لها اذا سئم الرجل ظفره عليها وألفى ان هذه المنحة حقيرة بالنسبة اليه، وركض يسعى وراء غرام جديد ! ينبغي للرجل ان يحكم وان يحرس ؛ يجب

عليه ان يكون قادراً على ان يحيـــا حياتين ، ليحقق سعادته لنفسه ، وسعادة من وقفت عليه رجاءها . ولكن تعساً له اذا ظل تحت اثقال هذا العمل ، واذا ادرك حبه وعجز عن اضرام نار هذا الحب ، حتى لا يرى فيه الا موضع ازدراء واحتقار . ولكن جيلنا هذا لن يقبل هذه الآراء ... فالجيل الذي قدس العبد يجرب ان يؤله المرأة .. لا يرى في المرأة عنصراً ساميـــاً يستطيع ان يساعد الانسانية في تقدمهـا . الرجل وحده يتعلق عليه ذلك لانه السيد ، وهو السيد ذو القوة الراجحة والعقل الارجح والقلب الامثل والارادة الاشد نفـــاذاً ، والمرأة قد تكون نبيهة ذكية تضارع الرجل نباهة وذكاء ، تتفهم المسائل وتفصل امهات الامور الدقيقة وتحاكم وتجادل ولكن طبيعتهـا اقل عمقاً واقل غنى من طبيعة الرجل. انها تبقى دائماً طافية على سطوح الاشياء . انهـــا شيء لا يذكر... انها مسكينة مزهوة بنفسها. يقول «زراداشت» : «يعلم الرجل للحرب والمرأة لتسلية المحارب... وما دون ذلك فهو جنون» ليست المرأة صنمـاً وانما هي لعبة سريعة العطب لكنها ثمينة وقد تكون خطرة . هي رقة في طبع الرجل . تغدو خطرة مرعبة حين يضرمهـــا الهوى والحب والبغض، لان طبيعتها لا تزال اكثر احتواء من طبيعة الرجل على وحشية الغرائز الاولى . ففيها رقة ملمس الهرة وفظاعة مخالب النمرة ، فيها طبيعة نابية ثائرة ، واهواء جامحة لا تعرف منطقاً ، ورغائب قلقة... وكل هذا يجعل المرأة فقيرة الى سيد يكبح جماحهـا ويقودها ويميت فيها جنونها ، حتى اذا

استشعرت الرجل امست رقيقة ناعمة بفضل طبيعتها وزينتهـــا وتبرجها وفضياتها اللابسة الف ثوب . فيعرف ـ اذ ذاك ـ قلب سيدها الاشفاق عليها ، الاشفاق الكثير لانها اكثر عرضة للألم . انها مفتقرة الى حبه ، وقد قضي عليها بان تكون اقل الخلائق وهمـاً . ان نيتشه يقدم على المرأة التي تريد ان تتحرر من قيودها ، وتهجر احترامها الرجل وتزعم بانها قرينة مساوية ، تريد ان تدخل معه فيما تطلب الحياة من نضال . انـ نيتشه يبغض النساء اللواتي يمشين في صفوف الرجال ، لانهن يفقدن تأثيرهن ونفوذهن ، واعتبار المجتمع لهن ، وانما عهن ان يظهرن للرجال بطبيعة مباينة لطبيعتهم وجبلة مخالفة لجبلتهم ، يصعب فهمها ويعسر حكمها . وها هي المرأة المزاحمة الرجل اضاعت ما خصتهـا الطبيعة به واهملت مهنتها التي تقضي عليهـــا بوضع الاطفال . وفي النهاية يرى نيتشه ان اوروبا تتشوه وتزداد تشققاً ؛ قد استحالت الى معتزل تسكنه طائفة من الناس توفوق حيث لا احزان كبيرة ولا افراح كبيرة ، طائفة من رجال ونسوة تساووا في العجز والضعف والانحطاط ، يقضون على الارض حياة متشحة بالسواد لا امل منها ولا غاية لها !...

يرى نيتشه شريعة العبيد ومثل الزهد وسلطة الكاهن تقوم اركانهـــا على جملة اكاذيب فارغة ؛ وهو لا ينظر الى الشريعة المسيحية نظرة الرافض لها ، وانما يجد فيها خطراً كبيراً وتدميراً . ان قطيع المنحطين وقائدهم كاهنهم الزاهد تراهم وقد قضي عليهم

بان يغمضوا اعينهم عن بيـــان اصول الاشياء ، لكي يضعوا موضع الامتحـــان والحقيقة التجريبية — شريعتهم وقيمهم الوهمية الضالة التي عالجوا بهـــا حل اسرار الوجود . لو ادرك المريض حقيقة امره ، وعرف مكان عافيته ، وموطن شفائه ، وعلم ان علاج الكاهن لا يزيح من أنه الحقيقي شيئاً ، وانما هو علاج ظاهر يعمل على تشديد الألم بدلاً من ان يعمل على تخفيفه وشفاء صاحبه ؛ لو علم ذلك كله لرأيت العبارة المسيحية قد انهارت دعائمها واندكت صروحها . ان المنحط الضعيف يتحرى عن مخلف حقيقي لآلامه عند الطبيب او عند الموت . وقد احس الكاهن هذا الخطر فأخذ يحدث قرناءه دائماً عن الايمان ، وهو الاقتناع المبني على غير العقل ، عن الايمان الذي لا يحفل بحقيقة الاشياء ، وهل الايمان بحقيقته الا ان تفرض وهماً تشعر بضرورة وجوده في الحياة ؟ وتفرض وجوده باي ثمن كان ؟ في كل عصر يرى الكاهن في الحكمة الدنيوية والعلم الواقعي الذي يدرس الوجود للعلم ، غير حافل بقواعد الدين ، يرى الكاهن فيهما خصمين عنيفين ، وهو يحارب كل وسيلة تصرف الانسان عن التـــأمل في الاشياء بعين نفسه ، وعن جلاء الحقيقة عارية مجردة من غير تشويه . وهذا ما لا يتساهل فيه نيتشه ، وقد يغفر للمسيحية ما تثبت في الانسانية من آلام ، وما عسى يضر الألم الانسان اذا كان الألم يصفيه؟ وفي الحقيقة نرى الايمان الديني قد خلق ارواحاً كثيرة افادت البشر ؛ ولم يكلف نيتشه نفسه بيان الآلاء التي قامت بفضل ثورة العبيد فأغنت النوع الانساني

وظلت من الانقلابات المعتبرة في التاريخ. ونيتشه يعجب بالمنطق العظيم في المنطق الديني الكاذب ، وبالمذهب الذي ابتدعه وظل يغذي الناس طيلة عشرين قرناً بالاوهام الخيالية ، وقد يعجب بالكاهن برغم انه ينطوي على ارادة شريرة ، لان ارادته تستمد شعورها من نفسها، لا تحوك الاوهام حول الهدف الذي تقصده ولا حول الوسائل التي تصطنعها . واما ما يستفز غضب نيتشه من العالم المسيحي فهو ذلك المحيط القدسي الذي يحيط به، وذلك المزيج من المكر والغباوة والطهارة الكاذبة التي يتظاهر بها رجال الايمان. فاستفاق في نيتشه شعوره الوحشي وحبه للطهارتين المادية والروحية ، وجرأته في الذهاب وراء اقصى ما اشرف عليه عقله ، فثار وتمرد على هذا التدليس كله . ثم انصرف عن هذه الجماعة وفي قلبه سأم من رجالها الذين غدا الوهم عندهم جزءاً من الاجزاء التي لا يتم بدونها الوجود ؛ وهم لا يعرفون انفسهم حين يخدعون ويخادعون وحين يكونون صادقين ، يعيشون اسرى اوهامهم حين يريدون او لا يريدون ؛ واعان ان المسيحية هي المسؤولة عن تسميمها للبيئة العقلية والادبية في اوروبا. على ان جهود الكنيسة كلها في مناضلة العلم ذهبت عبثاً، ومقاومتها للعقل البشري ذهبت ادراج الريح : فان في اوروبا كثيرين من علماء الطبيعة ، على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم، يعيشون في غير اكناف الدين والايمان ؛ هؤلاء هم اعداء الكاهن . ولكن سائلا يسأل : وما بال عقول هؤلاء لم تضع سداً يمنع تأثير الوهم المسيحي ؟ وكيف لم يفلح اصدقاء الطبيعة

والحياة والعافية في تحطيم القيم المسيحية ؟ كان جواب نيتشه على هذا السؤال جواباً ادبياً . يقول : ان علماء العلماء لا يؤمنون بعلمهم ، ومعنى ذلك انهم لا ينصرفون الى تبديل المثل الاعلى الديني بمثل أعلى من عندهم ؛ او انهم يؤمنون بعلمهم ويأتون بحل جديد للحياة يستمدون مادته من المثل الاعلى المشيد على الزهد ؛ او ان رجال العلم هم رجال متوسطو الادراك ، عاجزون عن ابداع شريعة جديدة ؛ او انهم قوم زاهدون محتالون عالمون ؛ لا يختلف جوهر مثلهم الاعلى عن مثل الكهان . يشبه نيتشه هذا العالم « المتوسط » بامرأة عجوز لا تلد ولا تنجب . وهو قليل القناعة بنصيبه .

والآن فلننظر في تعريف رجل العلم ! ان رجل العلم يتصل نسبه بذرية غير شريفة . تنطوي نفسه على خلال ذرية غير شريفة ، ذرية لا تأمر ولا تملك سلطة ، ولا تغني شيئاً . انه عامل دائب يدرك بشعوره حاجات قرنائه . انه وارث امراض ذرية غير نبيلة ، ملك عليه الزهو ومشى لا يتحرى الا عن الاشياء السفلية في الطبائع ، اما العظمة فهي بعيدة المنال عنه ، وان مما يجعل العالم جليل الخطر شعوره البسيط بأنه من ذرية متوسطة ، فهو والحالة هذه يدأب عاملاً على ابادة الرجل « الشاذ » ولا ريب ان العالم يحيا بعيداً عن كل ايمان ؛ الا ترى فطرته في كثير من المواطن تواثم فطرة رجل الدين ، ثم يخالفه ويفر من ملامسته وملامسة امثاله ، لانه يعتقد كل الاعتقاد بان رجل الايمان هو

نموذج سفلي في البشرية ، وان رجال العلم هم احسن منه، على ان هنالك هوة سحيقة تفصل بين رجال الدين، رجال الارادة الكبيرة المريدة، المقاتل الثائر بنفس هذه الارادة ، والخالق قيماً يعتقد بصحتها ، وبين هذا الرجل العالم الحرفي ، هذا القصير الممحى نفسه الذي فقد ايمانه بنفسه وعمله. يعمل كما تعمل الآلة ليزداد فراغاً وخلاء ، وابتعاداً عن التفكير ، وليريح من سيئات هذه المسائل المقلقة ! قد يكون عمله جيداً لو كان يعمل مستوحياً نفسه. لكنه يعمل ليكون مأموراً عاجزاً عن ابداع قيمة جديدة ، عاجزاً عن ان يندفع بارادة. الحكم الآن ان العالم ، غير الذاتي ، الذي نفخت فيه الحماسة العلمية قد صار امره فاسداً ينتج منه ؟ لا شيء الا مرآة ... وآلة لا ارادة لها ... انه يشبه المرآة التي تعكس الاشياء ، وتنتقص حتى تظهر عليها فتعكس مرآتها ، وانما غناه في ان يكون معبراً تمر به الاشياء لا يحس ولا يلمس آلامه الشخصية. يعمل ما يستطيع ، ويعطي ما يستطيع، ولكن ما يعطيه حقير لا قيمة له . هو لا يأمر ، ولا يخرب شيئاً . يقول مع وليبنز ، : (انا لا احتقر شيئاً) ! انه آلة تصلح فيها المسودة والمشروع والطاعة . مفتقر الى معلم يهديه الى الغاية المقصودة . وهو ليس بعلامة حركة جديدة ، ولا بدء اولى . انه ، والاسفاه ! ابن تعلم . انه وعاء فارغ يتخذ لون السائل المراق فيه . انه فاقد الشخصية. ثم هاجم نيتشه الشكوكيين الذين يصل بهم علمهم الى حيرة يتساوى فيها الصعود والهبوط ، والعلم والجهل ، وانما يتميزون من رجال العلم بان هؤلاء عاملون دائبون

كالآلات ؛ اما الشكوكيون فهم عقول اضعفها تريضها الزائد في العلوم ، وهم ليسوا بشيعة واحدة، فمنهم المضطرب والمعتدل المزهو بنفسه ، ومنهم النفس التي تبذل الجهد في كشف اسرار الوجود وقد دوختها اسراره حتى غدت تروح وتغدو كالخيال الدقيق ليس له من قرار. الا ترى الى زراداشت نبي نيتشه المبشر بالسوبرمـان قد سحب وراءه خيالاً من هذه الاخيلة الضالة ، رافقته في كل مراحله ، قد طلقت كل ايمان كان فيه عزاء ، وحطمت كل الاوثان ، وفقدت ايمانها بالاسماء الكبيرة والرموز العجيبة حتى اضاعت غايتها في النهاية وضلت في زوايا الوجود الموحش هائمة بدون حب ولا رجاء ولا وطن . رآها زراداشت فلم يتمالك نفسه من الاشفاق عليها :

وقال بكآبة : انت ظلي !

ان الخطر الذي تفر منه ليس بحقير ايها المسافر !

ان امامك نهاراً سيئاً ، فاحترس من ان يكون مساؤك اسوأ !

ان السجن لامثالك الطائشين قد يصبح نعمة لهم .

ارأيت هؤلاء العتاة المفسدين ، يتجرجرون في قيودهم ! هؤلاء ينامون نوماً هادئاً لانهم مرتاحون بطمأنينتهم .

احترس في النهاية ان تغدو سجين ايمان ضيق ووهم قاس مرعب . على ان كل مـا هو ضيق قاس هو لك فيه اغواء وخديعة .

انك أضعت الغاية ، وكذلك أضعت سبيلك .

يا لك من نفس ضالة طائشة ! يا لك من فراشة منهوكة القوى ! »

ولكن رجال العلم ليسوا جميعاً على هذا النحو الذي صوره نيتشه ، فهنالك رجال يقين من رجال العلم ، علم هؤلاء لا يقف عند قولهم : ماذا ندري ؟ هو علم وثاب يخلق ارادة ويبدع شريعة ومذهباً . لكل فلسفة اجل موقوت ، تظهر فيه حجتها على الناس . وكل فيلسوف يضم شتات فلسفته ويحبسها ضمن نظام منطقي كأنها عمل عقلي محض ، ألا ان هذا باطل ، فان الحياة الواعية في كل انسان لها جذور تمتص من الحياة غير الواعية فيه ؛ وان حبه لمعرفة الحقيقة يعود الى غريزة فيه قوية خفية . عد الى المذهب الفلسفي العددي المجرد من كل شخصية ومن كل هوى تجد شيئاً يزل منزلة الايمان فيه ؛ وما نظريات الفيلسوف في الحقيقة الا بنات مذكراته واعترافاته . ان هذا الفيلسوف ليس في الحقيقة — كما يخيل الينا — مفكراً خالصاً ، ولكنه محام خبيث يذب عن اعتقاداته الوهمية ولا سيما الادبية منها . يجرب ان يجعل من اعتقاداته حقائق ثابتة وذخائر نافذة ، على ان هذه الاعتقادات التي تنطوي عليها المذاهب الفلسفية التي تريد ان توجه الحياة في سبيلها ، انما هي اعتقادات مستمدة من المثل الذي يبشر بالزهد والمسكنة... وهكذا لم يكن الكاهن والفيلسوف بخصمين — كما يبدو ظاهر الامر — وانما هما

صاحبـــان وان كانا لا يدريان . هذا هو (كانت) ابو الفلسفة الالمانية لا يرى فيه نيتشه الا كاهنـــاً مسيحياً تطور في بعض حالاته . وخلاصة فلسفته انها تضع « شعبتين » من شعبها خارج القوة العقلية ؛ في الاولى تلمح بعالم حقيقي مباين لهذا العالم المبني على الظواهر والحوادث ، وفي الثانية تؤمن بالشريعة الادبية الخلقية انها مقدرة تقديراً . واذا جرد المحقق هـاتين الشعبتين وجد انهما وليدتا نظريات الشريعة المسيحية ذاتها . اذ ما هو الايمان بعالم حقيقي غير هذا العالم ؟ اليست هذه الفلسفة تنطوي على الفكرة التي يبشر بها علم اللاهوت ، فالاله هو العلة الاولى للوجود الذي تتلقفه الحواس ، وحياة الانسان الحقيقية هي الحياة في الله ، وهكذا اخذ النظريون فكرة القول باله صالح ، باله المتألمين ، ودققوها وسموا بها وبدلوا لونها حتى احالوها عنكبوتاً ضخماً ينسج الوجود من خيوطه ، فكان منه « المثل الاعلى » والعقل الخالص ، والواحد المطلق ، والشيء القائم بذاته ؛ على ان هذا الشيء القائم بذاته ، وهذا العالم الحقيقي ان هما ـ اذا تجردا ـ الا العدم الخالص . ان اله المسيحيين ـ كما يراه نيتشه ـ هو اله كل ما يتألم ، وكل ما يجنح الى الموت ؛ وهو بدلاً من ان يبشر كآلهة الوثنية بما يفيض على الحياة من بهجة ونعيم ، ويبث الارادة القوية التي تقول للحياة « نعم » ولكل ما تحمله « نعم » نراه يجعل الناظر الى كل منحط خسيس في فؤاد الانسان ، يكره الحياة الحقيقية ولا يجعل لها الا مقتاً ؛ ويجعل رجاءه في حياة وهمية ثانية . ان عالم النظريين يماثل في حقيقته هذا العالم

المسيحي . انه كلمة فارغة من كل حقيقة: ان الاله المسيحي هو علامة « سلب الحياة » واله الفلاسفة هو العدم الخالص . وتلك الارادة التي تمثل هذا الاله ان هي الا الجنوح الى الفناء . وان ابرز هؤلاء الفلاسفة الذين يعتقدون بانهم مـــارقون من كل دين وكل ايمان هم في الحقيقة رجال ايمان لا يتزعزع . ان هؤلاء العلماء والفلاسفة اللابسين اثواباً مختلفة انما لباسهم لباس واحد يلفهم ويضم بينهم ، هو لباس الزهد . لنحلل معتقدهم : ان ارادة ادراك الحقيقة – مهما كان ثمنها – تتهيأ في طريقتين مختلفين: تقول : « لا اريد ان اخدع ! » او تقول : « لا اريد ان اخدع نفسي ولا اخدع احداً » . اما القول الاول فهو بعيد عن الحقيقة ، لان الانسان يقدر على ان يسمو الى الحقيقة بفطنة منه او خشية اذا كان يثق بنفع هذه الحقيقة السامي اليهـــا . ولكن الحقيقة هي انه اذا كانت هنالك حقيقـــة بدأت تنجلي شيئاً فشيئاً للعقول المستنيرة فهي ان الوهم ذو فائدة للوجود وضروري له كالحقيقة . وفي اعتقاد نيتشه ان الوهم والكذب هما من الجواهر اللازمة للحياة . ان مسألتنا التي نبتغي حلهـا ليست بجملة اعتراضات ، ولا فوز في المنطق ، وانما مسألتنـا هذه : « مـــا هو الاجدى نفعاً لحفظ الحياة ، وصيانة النوع ووقاية الحيوان ؟ »

وانا لنستطيع ان نقول بدون تردد: «ان الافكار والاحكام الاكثر بعداً عن الحقيقـة هي عندنا من الاشياء التي لا منصرف

عنها ولو ان البشرية استغنت عنها لما استطاعت الحيـــاة ، اذ كان الجحود جحوداً بالحياة نفسها واعداماً لها. ولكن لو فرضنا ان الكذب اكثر يمناً والحقيقة اكثر شؤماً ، فان رجل العلم لا يجنح — اذ ذاك — الى الحقيقة طمعاً في فـــائدة او رهبة من شيء ، وانما يجنح اليهـا ويتواقع عليهـا لانه نشأ على الا يخدع نفسه ولا غيره مهما كلفه ذلك . تراه يضحي بسعادته وبالبشرية في سبيل الحقيقة ، هذه الحقيقة المقدسة التي راح المسيحي يسميها الهاً . ومهـــما لا ريب فيه ان ناشد الحقيقة يضع ايمانه في وجود غير هذا الوجود ، وحياة غير هذه الحياة . فماذا تراه يفعل في وجودنا هذا بعد انصرافه عنه ؟ هل يجد غير الجحود به ؟ ولكن رويداً ! اريد ان اقول : ان اعتقادنا العلمي مبني على اعتقـادنا النظري ، وانا نحن مفكري اليوم ، الجاحدين الساكرين ، نستمد النار التي تحرقنا وتثيرنا من الجمرة التي اضرمتهـا نار العقـائد كثيراً ، ومن ذلك الايمان المسيحي الذي شابه الايمان الافلاطوني القـائل بان الله هو الحقيقة وان الحقيقة هي الهيته . ان رسول الجيل الحاضر لم يجرؤ على ان يشك في القيم الحالية الموروثة ، لم يجرؤ على القول : ما هي قيمة الحقيقة وما هي قيمة ذلك الامر المطلق للفضيلة التي تـأمرنا بسلوك طريق الحقيقـــة ؟ انه وقف مكتوف اليدين ازاء مسألة الحقيقة والفضيلة ، انه لم يقل لماذا وجب على الانسان ان يعرف كنه هذه الطبيعة التي نحسها اليوم كوة عمياء ، غير عاقلة ، لا تعبـأ بالخير ولا بالشر . فيهـا قوة الخصب والتوليد ، تنجب دائماً مخلوقات جديدة لتضحي بهـــا

لغايات لا معنى لها ، ولا عاطفة في صدورها ... واذا كانت هذه حالتها فلماذا كتب الانسان على نفسه التضحية بها في سبيل مثل هذه الالوهية ؟

يرى نيتشه ان الرغبة في الحقيقة مثلها مثل الصيغة العصرية لصرامة التنسك والزهد التي دفعت الانسان الى ان يضحي — في سبيل الله — بكل مـــا تملك يداه ، فكان الانسان يقرب له الضحـايا البشرية ، يضحي باول غلام يأتيه ؛ حتى اذا جاء العهد المسيحي اصبح الزاهد يضحي للاله بكل غرائزه وميوله الطبيعية . والآن مـــاذا يملك عليه ليضحي به ؟ ألم ينته دور التضحية له بكل عزيز ؟ اليس الاجدر الآن تضحية الاله نفسه ؟ وعبادة الحجر والمبهم والثقل والحظ والعدم امعاناً في مجافاته ؟ وهكذا نجد رسول المعرفة الذي لم يهو في مهواة الشك ، المؤمن بالحقيقة ، الجري، على خلق مثل اعلى ، الشديد ايمانه بالعقل السامي والفضيلة ، نجده ... اذا نزعت رداءه — زاهداً ينكر الوجود ، ومتشائماً يفر من الحياة ، لانه يأبى ان يستسلم الى الوهم ، الى الكذب اللازم للحياة ؛ انه عدمي كالمسيحي يعمل على ان يقذف بالانسانية في هاوية العدم .

الناحية الايجابية من مذهب نيتشه

السوبرمان

أو

الانسان الاعلى

ان اوروبا الحاضرة قد انسل اليها الداء ، ترى فيها حيث نظرت مظاهر العلة والانحطاط . فكأن نصباً بالغاً حل على الانسان فكبل قواه واخوى عزمه ، وهو بعد ان قطع سبيله من دودة ارضية الى قرد، ومن قرد الى انسان، اصبح يجنح في هذه الساعة الى راحة بعد هذا التطور الذي شقي فيه ؛ لا يحفل اذا كانت الراحة في الوقوف او في الموت ، وهنالك مذاهب كثيرة تتعلق باطراف ثوبه تغريه بعوامل جميلة وآفاق مطرزة. هذا يعده بالمساواة المطلقة، وهذا يعده بحياة ما اجمل انقهـــا ! المذهب الديموقراطي مذهب منحط في الجماعـــات . ومذهب

ديانة الالم هو مذهب الضعفاء . واولئك الشكوكيون الناقمون المارقون الذين ألفوا «مثوى» لهم عند زراداشت ، هم منحطون يتألمون من وجودهم ، ويكادون يختنقون سأماً من انفسهم واحتقاراً لها كلما وقعت انظارهم على الانسان الحاضر . أليس هذا هو الانسان المتشائم الالهي الذي ينطق بواعظ الموت قائلاً: «كل شيء باطل الاباطيل» «لا شيء يجدي ! السعي باطل» . «لا جزائر سعيدة وراء المحيط» ! هنالك متشائمون كثيرون أووا الى كهف زراداشت ، منهم الملكان اللذان هجرا مملكتهما لانهما لم يخلقا أول الرجال ، والآن يريدان الا يأمرا ولا ينهيا احداً . وهنالك العالم الذي يعكس صور الاشياء ، ويضحي بحياته ابتغاء ان يدرس دماغ علقة . وهنالك الساحر المشعوذ الذي يعبث كثيراً بحقائق الاشياء ويخدع كل الناس دون ان تجوز عليه خدعة . ثم يتحرى — وقلبه مفعم سأماً وكآبة — عن مجد مشروع صحيح . وهنالك «البابا الاخير» ومن لم يستطع ان يجد لنفسه عزاء عن موت الاله . وهنالك اقبح الرجال ، قاتل الاله ، لان الاله خنق اشفاقه على بؤس الناس وشقائهم .

وهنالك السائل الذي مقت الانسان المتمدن ، يتحرى ازاء قطعان البقر السارحة في المروج ، يتحرى عن السعادة . وهنالك الشكوكي الذي قذف به جموح عقله الى اضاعة نفسه ، فضلّ وغوى وانطلق - بدون امل — يسبح في ارجاء الوجود . كل

هؤلاء يئنون من داء عميق يحز في قلوبهم حزاً. فهم يطوفون في الآفاق وقد اخذ القلق منهم كل مأخذ ، فالناس وكل ما يؤمن به الناس من السعادة لا يزيدهم الا سأمـــاً . فهم امسوا ولا ايمان لهم بكل الرموز التي يتقدس الشعب الفاظها ومعانيها . فلا ما وصلت اليه المادة بغنيهم نفعاً ، ولا الايمـــان بالمثل الاعلى يعمر قلوبهم ، فماذا يجب على الانسانية اذاً امام هذه الهاوية ؟ فهل تقف مشيهـا وتطلب نفي الحيـاة وتنشد العدمية ؟ يجيب نيتشه : لا ! لان الانحطـــاط لا يؤول الى العدم ، بل قد يكون الانحطاط بشائر حياة جديدة وعافية قوية ، وان مما لا ريب فيه انه لا يمكن الرجوع بالانسانيـة الى الوراء . يجب الاقدام ، الاقدام الى الامـــام... تقدموا رويداً رويداً في الانحطاط ! وكما ان اوراق الاشجار تصفر في الخريف وتتناثر على الحضيض، كذلك الانحطاط قد يكون طليعة سلالة جديدة، والانسانية تهب باحتضارها حياة سامية . ان الانسانية تتمخض وتتألم من اوجاع الولادة ؛ ولذلك لم يحمل (زرادشت) تعاسة الرجال السامين اذ يعتقد بان الانسان ينبغي له ان يتألم كثيراً ليستطيع الوثوب على القمم العالية . ان شقاء الرجـال السامين وسأمهم من الناس ومن انفسهم ضروريان ليصرفاهم الى المواطن العالية وليزيداهم جرأة واقداماً على الوثوب . واذا كان هؤلاء الرجال السامون هم بانفسهم نماذج ناقصة الانسانية فما همُّ ذلك ؟ يجب ان يكون هنالك انحطاط ونقص حتى يجيء النموذج كاملاً من كل وجه. ان الانسان السامي هو كالاناء، يتهيأ فيه مستقبل

الانسانية ، وفيه تتآلف وتتجاذب وتعمل كل الجذور التي ستظهر يوماً لمعانقة اشعة الشمس . على ان اكثر من اناء واحد ووعاء واحد بين هذه الاوعية سيتصدع وسيتحطم ! ولكن ما همُّ ذلك؟ اذا ماتت ولادة فرد فهل ماتت الانسانية كلها ؟ واذا ماتت ولادة الانسانية كلها فمـــا همُّ ذلك ؟ ان الانسان خاضع لهذا التشبيه الذي فرضه نيتشه . « ان الانسان هو حبل ممدود بين الحيوان والسوبرمان ؛ ليس الانسان بغاية ، انما الانسان مجاز وممر . وليفن الانسان في سبيل حياة السوبرمان . يقول زراداشت للشعب الحاشد حوله :

« اني اعلمكم السوبرمان ؛ الانسان يجب ان يفوق الانسان! ماذا فعلتم لتفوقوا الانسان ؟ » كل الكائنات صارت في طريق الابداع الى ما هو اسمى ، وانتم يا بني الانسان شئتم ان تكونوا من الموجة جزرها لا مدها . بل آثرتم العودة الى الانسانية على السمو فوق الانسانية .

ما هو القرد في عين الانسان ؟ انه لخزي وعار . وهذا ما يجب ان يكون الانسان في عين السوبرمان : خزي وعار . ها انني اعلمكم السوبرمان . انه هو ابن الارض ، فلتقل ارادتكم ، اجل ، ليكن السوبرمان ابن الارض » !

* * *

ومن هو السوبرمان؟ وكيف يستطيع الانسان ان يكونه؟ يمكننا تحديد السوبرمان بانه هو الانسان الذي يصرف عن نفسه

كل التقاليد الموروثة من مذاهب وشرائع سارية في جسد اوروبا، يصرفها عن نفسه ليعود الى تقاليد وضعها رجال نبلاء واسياد خلقوا بانفسهم هذه القيم ولم يقتبسوها من غير انفسهم . وليس معنى ذلك ان نعود بالانسان الى الوراء — الى عصر الوحشية — وانما نريد من الانسان ان يبقى محتفظاً بمعارفه وبتجاربه التي شقي فيها ادهاراً طويلة... ولكنه يجب عليه ان يحطم مجموعة التقاليد والشرائع التي تعوق سيره وتحول بينه وبين التقدم المنشود . ان هذا الانسان بذهابه من الوجود يفتح الطريق للسوبرمان . وما اشبه هذا الاجتياز بالحركة التي تولد الرجل الزاهد عند «شوبنهور» ! يعتقد المتشائم الكبير بان الالم قد يقود الانسان الى الانعتاق من ارادته الشخصية ، ويسير به الى الانتحار في النهاية . ولكن هذا لا يغني وحده في نقله ، وانما لا ينبغي له اذا اراد الخلاص ان يقنع بالتنازل عن حياته الخاصة التي يحرزها ، بل ان يتنازل عن الحياة عامة ، وبهذا الثمن يستطيع ان يحس بالهدوء . اما عند نيتشه فان الالم هو الواخز الذي يخز الانسان فيقوده الى السلام . ان الانسان يتألم من كل شيء ذاتي ، فيدرك السآمة الحادة الفاشية في نفسه ، وهذه السآمة هي التي تسوقه الى طلب الزهد والتشاؤم . وهذه هي حالة الرجال السامين الذين جمع بينهم زراداشت في كهفه . ولكن النبي يعظهم قائلا لهم : « انكم لم تبلغوا في الألم الدرجة التي اريدها ، لانكم ما زلتم تتألمون من حالتكم ومما انتم عليه . انكم لم تتألموا من حالة الانسان الحاضر ! » فاذا بلغ الانسان

هذه الدرجة البالغة من الشقاء والسأم توارى واباد نفسه تاركاً الارض للسوبرمان . ان التشاؤم الحاد العنيف هو الذي سيولد التفاؤل الظافر .

وهذه هي الميزات التي يراهـــا نيتشه تميز السوبرمـان من الانسان؛ يرى ان فضيلة الانسان فضيلة تحمل الى الناس جميعهم بدون فرق ولا استثنـــاء ، بينما يرى ان فضيلة السوبرمان لا تعني الا فريقـاً منتخباً ضئيلاً ساميـاً . ألا ترى اوروبا اليوم جميعها تؤمن بديموقراطية تساوي بين طبقات الناس مهما اختلفت اصولاً وفروعـــاً ؟ ونيتشه لا يرى في هذه الديموقراطية شيئاً طبيعياً ، هو يؤمن «باللامادة» ويريد ان يخلق طبقة ارستقراطية تتألف من انواع محدودة ، لكل نوع تعاليمه واعماله وواجباته المكتوبة عليه ، واسفل هذه الانواع هو مجموع الفئات المتوسطة التي يدور بايديها دولاب المجتمع . فالنقش والتجارة والصناعة والعلم والفن تحتاج الى عمـال يخدمون برضاهم هذه الصناعات ، يطيعون مختـــارين ويعملون مريدين . هؤلاء هم عبيد لانهم ينفذون ارادة من هم اسمى منهم . وحق لهم ان تكون منهم الطاعة وان يحتملوا من الألم كثيراً لان الحقيقة قاسية . على ان هؤلاء يجب ان تضمن لهم اسباب حيـاتهم فيكونوا اكثر هناء واطمئناناً وسعادة من رؤسائهم ، لا شغل لهم الا ان يواصلوا دورة الحياة... اما الايمان الديني عندهم فهو نعمة لا تثمن ، لانه يذهب كأشعة الشمس فاقة وجودهم المظلم ، يعلمهم القناعة

والسكينة ويجعل واجباً عليهم احتمال ارادة غيرهم . وهو الذي يبث في ارواحهم هذا الوهم الجميل القائل بان هنالك نظاماً للأشياء ، وانهم هم انفسهم لهم مكان نافع في نظام الكائنات والاشياء . هؤلاء يقول لهم زرادشت « لكم العبودية والايمان ! » وفوق هذا الفريق فريق المدبرين وحارسي الشريعة والذائدين عن النظام والبلاد والمقاتلين وامير البلاد، وان هؤلاء يدبرون الامر ويسوسون الملك بسلطتهم . ان هؤلاء هم الذين تخضع لهم ارادة العبيد حين يريدون . اما الفريق الاول فهو فريق الاسياد والعقلاء وخالقي « القيم الاجتماعية » ، هؤلاء يجب ان ينفذ تأثيرهم في قلب المجتمع ، هؤلاء يجب ان يهبطوا الى الارض ، ينزلون فيها بين الناس منزلة الاله الذي يقدسه النصارى ، هؤلاء هم السادة ولهم وحدهم صنعت فضيلة « السوبرمان » . وهذه الفضيلة لا تتميز من غيرها بانها فضيلة ارستقراطية فحسب ، ولكنها تخالفها في المثل الاعلى الذي ضربته . اما الانسان الفاضل في الشريعة المسيحية او شريعة الزهاد فهو الذي يخضع حياته لمثل اعلى ، ويضحي بميوله ورغائبه في سبيل عبادة الخير والحق . اما العاقل في شريعة نيتشه فهو غير ذلك . العاقل هو خالق « القيم » وليست مهنته الا خلقها ! لا شيء في الطبيعة له قيمة بنفسه . ان عالم الحقيقة هو مادة واحدة لا معنى لها ولا غاية الا المعنى او الغاية التي نراها نحن فيها ونعطيها اياها . الفيلسوف الحقيقي هو الرجل الذي ينطوي على شخصية قادرة على خلق الوجود ، ويبعث في الناس الرغبة

ويستهويهم ، هو الشاعر العبقري الذي تتألف في نفسه « القيم الاجتماعية » التي يؤمن بها رجال عصر ! هو مفكر في الاشياء ، لكن تفكيره ليس الا الشريعة السامية التي تهتز لها أمم ! يبدع بحرية مـــا يشاء مستقل الفكر ، سائلاً من الخير والشر ، من الحقيقة وغير الحقيقة ، هو يبدع حقيقته ، ويخلق شريعته وفضيلته . انه رجل مجرب لا يفتأ يتحرى عن صور لعوالم جديدة . تراه يضحي بحياته وبسعادته ، ويفادي بحياة الآخرين الذين يجرون في مضماره وبسعادتهم دون ان يتزعزع . انـــه لاعب جريء يتحدى الحظ ، لا يجفل اذا كانت لعبته لعبة الحياة او الموت . ان العاقل عند نيتشه ليس بذي الروح الهادىء المسالم . هو من لا يعد الناس بالسلام وبالفرح الهادىء باقتطاف ثمرات عملهم ، ولكنه يدفعهم الى الحرب ، يلمع بين عيونهم الرجاء بالنصر والامل بالظفر . يقول زراداشت : « انكم ستتحرون عن اعدائكم ، وانكم ستقاتلون وستحاربون من اجل فكرتكم ، فاذا غلبت فكرتكم فليدفعكم اخلاصكم الى السرور بهزيمتها . انكم تحاربون السلم كوسيلة لحروب جديدة ، على ان السلم الصغير هو خير من السلم الكبير . انا لا انصح لكم بالعمل ، ولا انصح لكم بالسلم ، ولكن اوصيكم بالظفر . ليكن عملكم حرباً وسلمكم ظفراً ! »

« يقولون : ان السبب الشريف يقدس الحرب . وانا اقول لكم : ان الحرب الشريفة هي التي تقدس كل سبب . يجب

ان لا يكون لكم من الاعداء الا المبغضون لا الحقيرون، واذ ذاك تكونون أولي زهو و كبرياء باعدائكم، حتى ليغدو ظفرهم عليكم ظفراً لكم . »

ان القتال عند نيتشه هو خير سبب يعمل على التقدم ، لانه يرى مواضع الضعف ومواضع القوة . يرى الصحة والمرض في المادة والاخلاق . وقد يكون القتال تجربة خطرة يريده العاقل ليزيد في حيوية الحياة ويزيد آفاقها سعة . وليدرك قيمة فكرة ما وقدرتها على الاحاطة بمعاني الحياة . الحرب نعمة حسنة في ذاتها . ونتبأ نيتشه بان اوروبا ستدخل في عصر قتال تتطاحن فيه شعوبها في سبيل سيادة العالم . وبينما كانت « القيم الاجتماعية » الاولى تضع الشفقة في رأس هذه القيم ، كان زراداشت يعلم رفاقه ان الارادة هي الفضيلة العليا « هذه هي الشريعة الجديدة التي اوصيكم بها ، كونوا قساة اشداء ! » اذ يجب في الحقيقة على المبدع ان يكون قاسياً عنيفاً اذا اراد ان يخضع الحظ ، او اراد ان يوحي بتعاليم جديدة . ان الشفقة ليست عنده بفضيلة ، ولكنها خطر من اكبر الاخطار التي تلاقيه . الم يسمع « زراداشت » حول كهفه اصوات اليأس يرددها الرجال الذين يدعونه « تعال ! تعال ! قد حان الوقت » فلو ان الشفقة عليهم استهوته اليهم لكتبت عليه الغلبة . انه يحتاج الى قوة قاسية تصرف عنه تأثير هذا الدعاء الباكي . بينما كان زراداشت يغادر بيته لاحقاً اليائسين الذين يجأرون له ، نزل

مكاناً موحشاً خيل اليه انه مدينة الموتى . هنالك الصخور البارزة السوداء ، والشماريخ الحمراء ، حيث لا تنبت عشبة ولا ينجم كوكب ولا يزقزق عصفور ! هذا هو واد ينفر منه الحيوان ، لا يأوي اليه الا الافاعي العظيمة الزرقاء ، تأتيه في كهولتها لتعانق الموت فيه . في هذا المكان المروّع ابصر « زراداشت » هيكل انسان قبيح ، فلم يشأ ان يتأمله ، وهمّ بان يركض ما استطاع فراراً من هذا المسخ . ولكن صوتاً اهاب به كأنه غرغرة محتضر او بقية ماء في منحدر .

« ـ زراداشت، زراداشت ! نبئني بسري ! ما هو الانتقام من الشاهد ؟ » وفجأة انتولت على زراداشت شفقة غريبة ، ولكنه سرعان ما استعاد قسوته وصرامته فأجابه :

« ـ انا اعرفك... انت قاتل الاله ؛ دعني اسر في طريقي! انت لم تحتمل من كان يراك ويطلع عليك في كل ارتعاشك وشناعتك واشمئزازك انت يا اقبح الرجال ، فأخذت ثأرك من هذا الشاهد » خرج زراداشت ظافراً من هذه التجربة التي هلك فيها الاله. ان الله المحبة قد مات ، وقد خنقته شفقته باطلاعه على كل نقائص الانسانية وشناعتها الخفية. ان شفقته لا تعرف حداً. انه وطئ الاماكن الاكثر عمقاً والاسحق بعداً من النفوس البشرية . وهذا مات ، لان الانسان لم يعد بقادر ان يحتمل شاهداً يقظ العين على خزيه وعيوبه . احس زراداشت بموجة الحياة تغمر نفسه ازاء هذا المشهد ، فأغمض من طرفه وهمّ بان

يتابع سبيله ، معتقداً بان متابعته للطريق اجدى عليه من ان يهدر ايام عمره في سبيل الجلوس الى جسد هـامد لا ينفع فيه دواء . وفي صنعه هذا لم ينج من الموت وحده فحسب ؛ بل اكتسب مع نجاته حب هذا الانسان الكريه . اما الانسان الكريه الذي كان يبغض الاله والرحماء فانه انحنى خضوعاً ازاء صرامة زراداشت وقبل ان يكون احد الطارحين باب مثواه .

لا ينبغي للعاقل ان يكون قاسياً على نفسه فحسب ، ليكن قاسياً على الآخرين ايضاً لا يحفل بهدوء ولا بسلام ؛ هو يدرك ان الانسانية لا تنشط نحو غاية معينة معلومة ؛ ولكنه يرى كل شيء في استحالة وتطور ، يرى من واجب الحياة نفسها ان تعمل على ان تفوق نفسها ، ويدرك ان الانسان ليس من حقه ان يعلل نفسه بانه بلغ المرفأ سالماً . ليكن كل سلام عنده ذريعة لحرب جديدة ! ولتكن حياته طافحة بالحوادث العظام ! هو لا يتحرى عن السعادة ولا يجهل ان الفرح والحزن همـا توأمان متقارنان ، وفي استطاعة الانسان ان يجوز الحياة بدون فرح كبير يعروه او شقاء كبير يغزوه ، على ان ينقص من قوة حيويته . اما الذي يريد ان يتذوق الافراح الكبيرة فمن واجبه ان يعرف الاحزان الكبيرة ، اذ كل ارتجاج في ناحية يقابله ارتجاج في ناحية اخرى . امـا خالق القيم المؤمن بالحياة ، من يريد الحياة عنيفة قوية ما شاءت القوة ، فهو يريد ان تكون الارتجاجات واسعة حول نقطة الموازنة . يريد ان يعرف القمم

العالية للسعادة والشقاء . يريد ان يعرف الانتصارات المسكرة والهزائم الشنيعة . يجب عليه ان يمشي في وقت واحد الى النصر والى الاندثار . وزراداشت ذاتـــه قد هلك حين بلغ « قمة » وجوده . والسوبرمان هو — في وقت واحد — الظفر اللامع والاندثار القوي للانسان . وبينما ينبغي للعاقل ان يكون قاسياً على نفسه لا يلتوي ازاء الألم ، ينبغي له كذلك ان يكون قاسياً على الآخرين ؛ هنالك مصائب وآلام يعد مخففها فاقداً للانسانية ، وهنالك منحطون ناقصون ، جاءوا الحياة اختلاساً ، فلا يجوز تأخير فنائهم !

يقول زراداشت : « في كل مكان ترن اصوات الذين يعظون بالموت ، والارض معتمة بالذين يجب ان يوعظوا بالموت ، او « بالحياة الابدية » حتى يقلعوا عن الحياة سراعاً . والمتشائمين والشكوكيين والمنحطين الذين يئنون ويقولون « مـــا الحياة إلا شقاء » ، لهؤلاء يجب ان يقول العـــاقل « اذن ! ضعوا لحياتكم وآلامكم حداً تنتهي عنده حياتكم وآلامكم ! ولتكن شريعتكم مبنية على هذه الكلمة « الانتحار واجب ، والانهزام من الحياة واجب » اذ لا ينبغي للارض ان تغدو داراً آهلة بالمرضى والبائسين ، حيث يفنى الانسان الخـــالص الجوهر سأمـــاً وشفقة . اذا اردنا ان نستنقذ السلالات الآتية من مشاهد الفـــاقة والشناعة فلنترك الموت ينزل بمن هو ناضج للموت . ولتكن فينـــا جرأة على الا نصرف الساقطين عن

السقوط ؛ لندفنهم ولنقذف بهم قذفاً حتى يهووا سريعاً !
ينبغي للعاقل ان يعرف كيف يتحمل مشهد الالم عند الآخرين، وان يعرف كيف « يؤلم » ويبث الالم دون ان تجد الشفقة الى قلبه سبيلاً . هذا هو ما تطلبه النفس العظيمة. يقول زراداشت: « ابالغ انت شيئاً عظيماً اذا لم تشعر بقوتك وارادتك التي تعاقب بآلام كبيرة ؟ ان عرفانك ان تتألم ، هذا شيء حقير ، فالنساء الضعيفات والعبيد يصبحون اسياداً في فن الالم. ولكن ثبات جأشك وعدم انحنائك امام المصائب المؤلمة والصيحات المؤلمة ، هذان هما مظهر العظمة وسرها الصريح » ينبغي للعاقل ان يتصف - في كل فصول حياته - بطهارة الطفل اللاعب، وصفاء الراقص الباسم، وهنيء اللاعب المجدود ، وفي مثل « الاستحالات الثلاث للروح » ينوه زراداشت بان النفس الانسانية يجب ان تكون في استحالتها الاولى « بعيراً » يحتمل بصبر اثقل الاعباء على ظهره ، حتى يستطيع ان يجمع الشيء الكثير من التجارب ، ثم يستحيل البعير اسداً يجأر قائلاً « انا اريد » ويتوعد بخالبه الحادة كل من يحاول العبث بحريته . يجب ان ينتصر على تنين الشريعة المكتوب على كل جزء من جسده باحرف ملتهبة « يجب عليك ! » ثم يسرع في نزع اثقال المثل الاعلى والحقيقة والخير عن ظهره مما كان يظن حمله خيراً له. واخيراً ، لكي يستطيع ان يدخل في دور الانتاج والابداع للقيم الجديدة ، بعد تهديم القيم القديمة ، يجب عليه ان يستحيل طفلاً يلهو ويلعب ؛ « ان الطفل هو صفاء ونسيان ، هو ابتداء ، هو

لعبة ، هو دولاب يدور بنفسه حول نفسه » وهكذا يجب على النفس التي تتوق الى الصعود فوق قمم الحكمة ان تتعلم ان تلعب ، وان تفرح وتمرح طـــاهرة صافية ، يجب ان تكون خفيفة غير واعية تنعتق من التشاؤم والكآبة ، ومن كل ما يجعل حياتهـا سحابة دكناء . تقول الشريعة القـديمة : « ويل لمن يضحك » ! وهذا القول عند زراداشت مبتكر قبيح . امـا العاقل فيجب عليـه ان يضحك الضحكة الالهية ، يجب ان يدنو من محجتـه وغايته بخطوات خفيفة راقصة طـــائرة ، لا بليدة نادمة : انه يتعزى بالضحك عن نقصه ؛ انه بالرقص والطيران يجوز مستنقعات الكآبة كالرياح العـــاصفة . يجب على الانسان ان يتعلم الرقص بنفـه والضحك بنفسه وان يرتفع وأن يسمو فوق نفسه ، وأن تفوق نفسه نفسه على اجنحة الضحك والرقص. يقول زراداشت: « ان اكليل الضحك ، هذا الاكليل من الورد ، ضفرته انا على رأسي ، وانا قدست ضحكتي المرحة. ان اكليل الضحك ، هذا الاكليل من الورد ، القي به اليكم يا رفاقي! أنا أقدس الضحك ايها الرجال السامون فتعلموا ان تضحكوا » !

* * *

ان من كان مثلي مدفوعـاً بشوق غريب للتأمل في مذهب التشاؤم الى اقصى حد، قد يكون ـ من حيث لا يريد بذاته ـ فاتحاً عينه على المثل الاعلى للرجل الحي الطروب المبتهج بالحياة الذي لم يتعلم ان يتحمل الماضي والحاضر فحسب بل يعمل على

احياتهما معاً مهما كان الماضي ومهما ذهب المستقبل . ولعل هذا التشاؤم المبطن عمقه بالتفاؤل هو الذي حدا نيتشه الى ان يطلب الحياة لنفسه ، ولهذه الرواية الانسانية الشاملة الكاملة ، وللوجود الذي يقوم بتمثيل هذه الرواية .

في شهر اغسطس من عام (١٨٨١) هبت في رأس نيتشه فكرة القول بالرجعة الخالدة التي اصبحت فلسفة السوبرمان، وما لبثت هذه الفكرة ان ملكت عليه مشاعره كلها ، وقد تتلخص هذه الفكرة في هذه الكلمة : ان شحنة القوى التي تهيمن على العالم تتراءى لنا ثابتة سرمدية ؛ لا نقدر على ان نفترض لهـــا نقصاً لانها لو كانت كذلك لوجب زوالها في هذا الدهر الطويل ، ولا نقدر على ان نفترض لهـــا نمواً — كالنمو العضوي الذي نعرفه — اذ لو كانت كذلك لافتقر نموها الى غذاء . وما هو هذا الغذاء او هذا الوقود ؟ وعلى هذا لم يبق لدينا الا الاعتقاد برسوخ هذه القوى وثباتها. لنفترض ان هذه القوى يتفاعل بعضها ببعض تبعاً لقانون المصادفة والتدابير المتعاقبة ؛ وان الترتيب اللاحق مؤثر في الترتيب السابق ، فمـــا عسى يقوم في ازلية الزمان ؟ أرانا اذ ذاك مضطرين الى القول بان هذه القوى لم تبلغ بعد نقطة التوازن ولن تبلغها ابداً، اذ لو كان هذا الترتيب في استطاعته ان يظهر يوماً ما، لاستطاع اذاً ان يظهر لتطاول الزمن الغابر . والعالم عند ذلك يصبح جامداً ساكنـــاً لا يتحرك، لان من المحال ان تضل هذه القوى عن نقطة التوازن

والاستواء» بعد ان ادركتها ووصلت اليها . فنحن اذاً امام القول بان شحنة من القوى الثابتة المعينة تولد – في هذه الآماد – تدابير لا تتغير وحالات لا تتناهى . وبما ان الزمان لا نهاية له، وبما أن هذه الشحنة من القوى هي معينة محدودة فسوف تأتي لحظة – مهما كانت هذه القوى عظيمة ومهما كانت آثارها الناشئة عنها كثيرة – نرى فيها هذه اللعبة الطبيعية غير العاقلة تولد «تدبيراً» او تهتدي الى حالة تستقر عندها وتقف عليها . ولكن هذه الحالة او هذا الانتقال سيجر وراءه سلسلة تامة من الحالات المتسببة عنه من حيث ان الحركة العالمية تولد ذات الاشياء وتمشي باستمرار على دائرة واسعة . كل حياة خاصة هي جزء من هذا الدور الكلي. وكل فرد قد عاش الحياة ذاتها مرات لا تحصى وسيعيشها الى الابد . كل الحالات التي يمكن لوجود ان يبلغها قد بلغها في الماضي مرات متعددة . قد كان مرة، ومرات عديدة سيكون وسيعود ؛ وكل القوى السابقة متوزعة اليوم توزعها بالامس .

ايها الانسان ! ان الحياة كلها كمرملة ترش دائماً وتجمع دائماً ، وكل خليقة من هذه الخلائق لا تنفصل عن الاخرى الا بقدر تلك اللحظة الطويلة الضرورية لها حتى تعود تلك الضرورات التي كانت سبب ولادتها ، فتعود الى الظهور . والولادة حالة تحلها في «الدور العالمي» وعند ذلك ستجد كل شقاء وكل غبطة، وكل صديق وكل عدو ، وكل امل وكل ضلال ، وكل غرسة

وكل شعاعة من الشمس ، وكل نظام الاشياء ، وهذا الدور الذي انت فيه مثله مثل الحبة سينبثق من جديد . في كل دور من ادوار الوجود الانساني ، لكل انسان على الاغلب — ساعة تظهر فيها الفكرة القوية القائلة « بالرجعة الدائمة » لسائر الاشياء . وهذه الساعة التي تبلغها الانسانية هي ساعة «الفاجرة». وما ان بدا لنيتشه هذا المذهب حتى سرى في روحه ، وغمر فكره، وغلب على قلبه ؛ وقد عزم على ان يغامر بعشرة اعوام من عمره ، يدرس التاريخ الطبيعي لكي يستطيع ان يبني مذهبه هذا على قواعد علمية ثابتة ؛ ولكنه لاذ بالصمت وادرك خيبته في زعمه هذا . ولكن فكرة الرجعة الدائمة ظلت تتجاذب فكره ، وظل يدور حولها . وهذه الفكرة كانت احدى هبات « زراداشت » الكبرى الى رجاله . وقد وضح جلياً تأثير هذه الغُمَّة التي غشيت نيتشه يوم اصبح يؤمن بهذه الرجعة الدائمة ، ولن نستطيع ان نتخيل حلاً لمسألة الوجود أظلم واجم من هذا الحل ، فالوجود لا يعني شيئاً... انه وليد مقادير عمياء ، ينتج من وراء مصادفاته الخالية من التعور قوى يمزج بعضها ببعض، فيخلق بعض النماذج بحسب المصادفات . اما الحركة الشاملة للوجود فهي لا تقود جزءاً منها ولا قسماً ، وانما هي تدور حول نفسها بدون انقطاع في نفس الدائرة ، وهذه الحياة التي نحياها سنكررها الى ما لانهاية ، دون ان يكون هنالك رجاء في التغير ، وكل لحظة مشحونة بالكآبة والشقاء والسأم سنحياها مرات لا تحصى . فهل في الامكان ان نتخيل ما يضع هذا

الافتراض في جماعات المنحطين والمرضى والمتشائمين ، وفي كل من ترجح كفة شقائهم على كفة فرحهم ؟ ان عند اغلب الناس — كما يبدو — فكرة تشبه فكرة العودة الدائمة ، تظل وان لم تكن مبنية على مبدأ معين ، غير مؤذية ولا ضارة ، لانها تبغي فكرة مجردة خارجة عن الادراك ، لان مخيلتنا غير قادرة على اخراج هذه الفكرة الى حيز الحقيقة ، ولان المعارف التي يتلقاها عقلنا لا تعين الا قليلاً من قوتنا الحاسة. ولكن نيتشه هو الذي يحب الحياة لتعاليمه ، وهو يتفلسف بكل وجوده . وقد يشاهد ان الرجعة الدائمة اخذت تظهر في بعض اللحظات ككابوس شيطاني يملأ قلبك رعباً ويقف دقات قلبك. وقسوته على المنحطين والاشقياء بدأت الآن ترتدي غير رداء ، وقد وضح ما يريد في صيحته هذه « ليموتوا سريعاً ، ليقتلوا انفسهم ، او ليقتلوا ! هؤلاء المنحطون!!... من قبل ان يتمكنوا من قياس اعماق هاوية الآلام التي غرقوا فيها ، وقبل ان يفقهوا معنى التدو الوحشي الذي يقضي عليهم بان يجرجروا صلبانهم بدون امل في نجاة، واذ ذاك تفهم اذا كانت الانسانية في استطاعتها ان تتحمل هذا المذهب دون ان تزل سريعاً في هاوية اليأس والخوف ، او ان تعتبر فكرة العودة الدائمة كابتلاء يهوي به من لا تصلح حيويتهم . لا بد من قوة نفسية خارقة لاحتمال فكرة العودة الدائمة ، وهذا هو صاحب هذه القوة النفسية يستطيع ان يقول: اذا لم يكن للحياة معنى بذاتها فانا اعطيها معنى . انما انا قطعة من الطبيعة تريد ان تكون دائماً جديدة ، تسعى بدون سأم

ولا نصب الى ما لا نهاية في الحلقة ذاتها . انني سارتفع واصعد حتى يتسنى لي ان اتأمل كفنان روعة الحياة المخصبة التي لا تفهم. وسأهتز طرباً الى لعبة هذه القوى التي انتجت وحصلت كثيراً من الآثار اللطيفة الرائعـــة ، والتي ولدت الانـسان وستلد السوبرمان . سأتمنى بكل قلبي وايماني من القوة العمياء ان تبدع شيئاً لامعاً ساطعاً يسمو على الانسان . وسأحيا يراودني هذا الامل ، وسأجعل وجودي كله وعاء لهذه الفكرة . اريد ان الدائرة التي تتحرك فيهـــا الحياة تحور اكليلاً باهراً زاهراً . سأقضي حياتي فرحاً مرحاً ، راجياً ان يؤول دوري الذي امثله الى نتيجة حسنة . واذا خسرت — في هذا الدور — فلي رجاء كبير فيمن يليني ويأتي بعدي . وهكذا لا يتلاشى من الوجود ضياء الحياة ولا يكفهر . وهكذا الانسان المأخوذ بهذه الفكرة التي تزيده نشوة ، يصبح في حالة يعتبر فيها هزائمه وانكساراته كفدية يسيرة لافراحه وانتصاراته ، يجدهـــا كالمنخس الذي يدفعه دائماً الى التعالي والتسامي ، الى تفوقه على نفسه ، وهكذا اذا رجع الى محاسبة نفسه يرى ان مقدار سروره كان ارجح من مقدار ألمه واذ ذاك يرضى بكل حمية وشوق فكرة الحياة الخالدة ، وفكرة القبول بالحياة التي يكررها الى الابد . ولهذه النتيجة تسامى اولئك الرجـــال السامون الذين جمعهم زرادشت في مغارته . فحين عرض عليهم تعاليمـــه الجديدة وفضائله الجديدة ، وفتح عيونهم على جمال الحياة وروعة الحياة ، وحين شفاهم من تشاؤمهم ورفع نفوسهم التي اوشكت ان تنحني

تحت اثقال الكآبة والسآمة، جمعهم تحت جنح الظلام امام المغارة تحت قبة السماء .

جلسوا صامتين متهيبين ، كلهم في سن الكهولة ولكن قلوبهم تفيض قوة وحياة ، وكل منهم واثق بنفسه عن نفسه اذ غدا شيئاً صالحاً على الارض، وكان سكون الليل المفعم بالاسرار يناجي قلوبهم . عند ذلك تمت اعجوبة الاعاجيب ، فالانسان الاكثر قبحاً جاس ينفخ المرة الاخيرة ، وحين دعاه داعي الكلام قال: هذا السؤال الذي خرج من فمه طاهراً نقياً عميقاً، وجميع من كانوا حوله يصغون اليه احسوا ان قلوبهم تهتز وتخفق طرباً، قال : « هأنا — لاول مرة — غدوت راضياً عن حياتي . جميلة الحياة على الارض . ان يوماً واحداً ، ان عيداً واحداً مع زرادشت علماني ان احب الارض...

سألت الموت : هل هنالك الحياة ؟ ألا ، لتأت مرة اخرى! يا اصحابي ! الا تريدون ان تقولوا للموت مثلي : هل هنالك الحياة ؟ وفي سبيل محبة زرادشت لتكن مرة اخرى » .

افلح اذ ذاك زرادشت؛ فان الرجل الاكثر قبحاً، والمسخ الذي قتل بغضه الاله ، الذي يتمثل فيه كل قبح وشر وسوء في الانسانية ، قد تلقى الآن جمال الحياة ، وادرك ان الالم هو فدية لا مندوحة عنها للسعادة ، فقال : نعم ، للوجود ، وبينما كان النبي عاطفاً باتباعه يتذوق خمرة هذا النصر كان يتهادى ناقوس قديم ذو رنين حاد يعلن ببطء — مجيء نصف الليل — ان نصف

الليل هو الساعة الواحدة التي يلتقي فيها النهار الذي انتهى بالنهار الذي سيبتدىء ، حيث يصافح الموت الحياة . نصف الليل هو ساعة الصمت الاكبر ، حيث النفس النائمة تتفتح غبار التأملات والاسرار الخفية . وبينما كان الناقوس القديم ، الرسول الذي يقرع لافراح الانسانية واوجاعها ، يعلن بدقاته الاثنتي عشرة ، عن تلك اللحظة التي يجوز فيها الموت الى الحياة؛ نرى زراداشت يترك رجاله السامين يلمحون الفكرة الكبرى للرجعة الدائمة غارقة في الالغاز كأنها مزمور رمزي معطر بالنشوة الدينية :

١ : الا احترس ايها الانسان !

٢ : ماذا يقول منتصف الليل العميق ؟

٣ : كنت انام ، كنت انام

٤ : هأنا قد تيقظت من حلم عميق

٥ : الوجود هو عميق

٦ : اعمق مما لم يفكر فيه النهار

٧ : وعميق شقاؤه

٨ : وفرحه اعمق من المه

٩ : الشقاء يقول لك : اهلك !

١٠: ولكن كل فرح يبتغي الخلود

١١: يبتغي الخلود ، الخلود العميق .

تعليق المؤلف

على

فلسفة نيتشه

يتمتع نيتشه بما لا يتمتع به فيلسوف آخر ، لان تفكيره قد تناوله بالبحث ارباب الفلسفة وغير اربابها. وقد طغت «النيتشية» في الاعوام الاخيرة اي طغيان ، فاما المعجبون به فهم يرون فيه المفكر الفرد الصارم العميق في جرمانيا الحديثة ، له منزلة «دارون» في الاخلاق . واما خصماؤه فهم لا يرون فيه الا ولداً مريضاً ، له خطره ومبدؤه الفاسد وبينهما يقف الشعب حائراً ، تراه من ناحية معجباً بآثار هذا الجبار ومظاهر تفكيره الغريب ، ومحترساً من ناحية ثانية من مفكر ناقم على الاخلاق والتقاليد ؛ والآن سنعمل على تبيان الاسس الرئيسية التي ترتكز عليها فلسفة نيتشه ، والاهمية التي تنشأ عنها .

هدم النقاد فلسفة نيتشه من وجهتين : في الوجهة الاولى ابدوا خطأهما العملية . وفي الوجهة الثانية بينوا خطرها على الاخلاق. ان نيتشه في الطور الثاني من حياته لم يكن يكتسب شيئاً ولم يكن في استطاعته ان يكون عالماً؛ ولقد علمت رداءة صحته التي تحول بينه وبين مواصلة جهوده في البحث ، فهو قد بدأ حياته العلمية بدراسة اللغات ، ثم لم يلبث ان غادر هذا الميدان الى غيره ؛ وهو لم يكن في سائر العلوم الا هاوياً ، لا يسعى وراء ترقية هذا الفرع وذلك الفرع في العلوم ، ولكنه يريد من وراء ذلك ان يبدع مسائل جديدة ، او يكسو المسائل القديمة ثياباً جديدة ! فهو لا يؤثر في العلم نفسه ولكن في روح العالم. فان اشتقاقاته التي استنبطها في دراساته للغات القديمة لم تكن لتلائم الحقيقة . ولكن ذلك لم يكن ليحفل به، فهو يبغي ان يظهر طرق درس المسائل الاجتماعية بواسطة الدراسة اللغوية ، فالقيمة الجوهرية للخطوطاته الخاصة هي شيء ثانوي عنده ؛ سواء عنده حياتها وبماتها ، فهو يكفيه فضلاً ان ينفخ في نفوس هؤلاء الدارسين روحاً جديدة وينفح لهم آفاقاً جديدة . ولذلك نراه في آخر ادواره جد قلق ، يسعى بواسطة الدراسات اللغوية الى ان يستكشف الحياة الاجتماعية، وحضارة ما قبل التاريخ مستعيناً بدرسه ومقارنته بين اللغات . واذا شئنا ان نوضح بعض خطيئات نيتشه فلا ننس ان آثاره كلها « ذاتية » اي : « Subjective » ، والحقيقة — غير الذاتية يراها نيتشه ضرباً من ضروب العاطفة الدينية ؛ واننا لنطالب الى

العالم الا يحترم الا الحقيقة وان يكون في بحثه عنها خالياً من الاهواء متجرداً عن شخصيته – على قدر الامكان – واننا لنعلم ان التجرد عن الذاتية في البحث عن الحقيقة هو خديعة ، ونعتقد انه ليس في مقدور احد ان يتجرد عن شخصيته وينظر الى الاشياء نظرة خالصة لا تجتلي الا الاشياء ؛ وبهذا ليست كل حقيقة ذاتية قبل كل شيء : وجوهر الموضوع – في البحث العلمي – لا يقف عند ما اعترفه الكاتب من حقيقة ولكنه يقف على مقدار ما أودع في هذه الحقيقة من ذاته . ونحن على رغم هذا أرانا نؤمن بالحقيقة المجردة ، الحقيقة البارزة بحقيقتها خارج ادراكنا وحواسنا، وأرانا نؤمن بالمؤلف ويزيد احترامنا له كلما دنت افكاره بما ندعوه « الحقيقة المتجردة عن الذاتية » . انها الحرية بان نزن آثار نيتشه بهذا الميزان ، ولكن نيتشه كان قبل كل شيء ، يفتش عن نفسه ويسعى وراء معرفة نفسه ، ولقد كان اهتمامه ضعيفاً بالاطلاع على الاشياء بحقائقها ، وانما وقف اهتمامه كله وجهوده على ما يمثل شخصيته ، فخلق من الاشياء خرافات كاذبة ، وقد علم انه انما وصف نفسه حين كتب عن « شوبنهور وفاغنر » انه حوّل الحقيقة الى خرافات جذابة غريبة ، ولأن تكون مظاهر الشخصية نيتشه اجمل واحرى من ان تكون مظاهر تمثل حقيقة الوجود الخارجي ، وبهذا يصبح عبثاً سعينا وراء الحقائق التي عالجها والعمل على التوفيق بينها وبين الواقع .

وهنالك تأثير معاصريه فيه ، سواء احس هو هذا التأثير ام لم يحسه ، وفكرته التي جاء بها ، اذا جردت من اثوابه الخاصة ، تبدو فكرة قديمة ليست بابنة ذاته . فكل الآراء التي عالجها — من قوله بالذاتية وعبادة النفس والثورة على قانون المساواة وعبادة الانسانية — قد سبقه الى معالجتها احد معاصريه[1] كما سبق « فلوبير » و « رينان » الى الكتابة عن المذهب الارستقراطي . وقد وجد نيتشه في الكاتب « اوجين دوهرنك » عضداً في محاربة التشاؤم . واتحد مع « هارتمان » في النفور من الاجتماعيين والفوضويين ، واتفق معه في القول باستحالة المساواة بين الناس ، فقالا بفضيلة الحرب المدنية ، واتفقا على جعل الشفقة مادة غير صالحة للفضيلة ، وكذلك نرى مذهب الرجعة الدائمة يتجلى في كتاب «ليلانكي» وفي كتاب الدكتور «ليون» : «الرجل والمجتمعات» ، ولكنا ، وان قارنا بين نيتشه وبين هؤلاء المعاصرين ، فان هنالك تبايناً شاسعاً مهما كانت الافكار متقاربة متآلفة . وعلة هذا التباين شخصية نيتشه . ولقد نراه في بعض خطرات يتحامل على هؤلاء الاخلاف ، فقت من « رينان » روحه الكاهنة ، ونعت « هارتمان » بالمشعوذ . وليس نفوره هذا وليد حقد او حسد ، وانما هو وليد طبيعة تختلف جد الاختلاف عن طبائع خصومه . هذه الطبيعة التي تؤمن بان الشخصية في الفيلسوف هي

(١) ماكس في كتابه الواحد المجرد وصفاته .

اكبر قيمة واجل خطراً من آثار الفيلسوف . على ان هذا لا ينبغي ان يدفعنا الى انكار فضيلة كل حقيقة غير ذاتية اكراماً لقوة الشخصية عند نيتشه واذ ذاك يعم الجور والخطأ في الحكم. واني لمعتقد بان المؤرخ والفيلسوف يستطيعان ان يجدا عند نيتشه حقائق جمة بذاتها . وهنالك آراؤه في « فاغنر » يراها المؤرخ جديرة بالاعتبار لانها تبدي قيمة الفنان العظيم . وهنالك آراء لنيتشه يجدر بها ان تكون محل مناقشة ومجادلة ، على انني اقول : ان عبقرية نيتشه لا تستقر الا في « الذاتية » .

والآن اراني استشهد بكلمة « ليراندس » قالها في موضع التحدث عن فيلسوفنا حينما قارن بينه وبين خصومه فلاسفة الانكليز ، قال : وحين نقبل عليه ... بعد مغادرتنا لفلاسفة الانكليز ، نرى عالماً جديداً حولنا. فالانكليز ثم عقول متشابهة في الصبر والجلد. غرضهم ان يتقنوا الشيء جزءاً جزءاً ثم يجمعوا هذه الاجزاء الصغيرة المتفرقة ليؤلفوا منها شريعة وقانوناً ، يعملون غير متأثرين بذاتهم ، وقيمة فلسفتهم تتوقف على ما يعملون لا على ما ترقى اليه ذاتهم ، اما نيتشه فهو على نقيض هذا المذهب ، هو مثل « شوبنهور » متنبيء فنان ، تستهويك شخصيته قبل ان تستهويك آثاره ، واذا شئنا ابداء قيمة آثاره فليس لنا ان نتلوها تلاوة كتاب علمي لا تتوقف روعته على روح صاحبه ، نتلوها لنرى الروعة فيما بث هذا الرجل من معارف قديمة بسطها وجديدة وضعها .

يرى نيتشه في معرض كلامه عن « شوبنهور » أن مذهب المفكر لا شأن له، فكل فيلسوف يمكن انخداعه. ان ذلك الشيء الذي هو اجلُّ من مذهبه - هو نفسه - . في كل فيلسوف شيء لا نجده في فلسفته . علة كل الفلسفات والمذاهب هي الانسان ، الانسان العظيم. اما النظر الى نيتشه من حيث الوجهة الاخلاقية فقد لامه النقاد على غرائزه القاسية وانانيته الطاغية ، وقسوته البالغة على الضعفاء. على ان له بعض آراء لو لم يسىء الناس فهمها لآلت الى نتيجة اخلاقية حسنة ، فليس يكفي المرء ان يكون فوضوياً هداماً طارحاً عن ظهره التقاليد ليحيا محققاً مذهب نيتشه . وليس نيتشه برفيق اولئك الذين يعبثون بالسوبرمان . وهذا نبيه « زراداشت » كان يطلب الى الذين يرغبون اتباعه ان ينفذوا مذهبه بقسوة وشدة .

« هل انت شريعة قوية؟ هل انت شريعة جديدة ؟ هل انت حركة اولى ؟ هل انت دولاب يدور حول نفسه ؟ وأسفاه ! ما اكثر اولئك الذين يريدهم تعطشهم الى الصعود ! وأولئك الطامعين الذين يضطربون بيأس ! أرني انك لست واحد من هؤلاء الظامئين ولا الطامعين !

وأسفاه ! هنالك كثير من الافكار العظيمة التي ليس شأنها الا شأن النسمة تهب ثم تتلاشى . انك تقول انك حر ، ولكني اريد ان اعرف الفكرة التي تسيطر عليك، لا النير الذي رحت تهزه .

هل انت حقاً من اولئك الذين يجدر بهم ان يهزوا نيراً ؟ ان منهم من طرحوا كل ما منحتهم بعض القيم ، بطرحهم ثوب العبودية والارهاق حيث كانوا يعيشون . » ونيتشه ذاته يعلن ان مذهبه لا يحمله الا الى طائفة مختارة تستطيع حمله ، والقيام باعبائه ؛ واما الجماعات الاخرى فليس عليها الا الاذعان والطاعة والحياة بايمان. فلا يجدر بنا والحالة هذه ان نسفه آراءه بحجة ان بعض الضعفاء العاجزين ، المتفخة نفوسهم زهواً و كبراً ، قد اخذوا ببعض تعاليمه واقتبسوا نتفاً من مذهبه ليحققوا مطامعهم وليشبعوا جوع انفسهم وانانيتهم وليسعوا الى هدف العظمة . ان نيتشه هو ذاتي قبل كل شيء ، ويكفي اعتقاده هذا ان يهيج الناس عليه ، فالانسان الحاضر هو « ذاتي وغير ذاتي » في وقت معاً . يرى في الحالة الاولى نفع نفسه وفي الحالة الثانية نفع غيره ، ويتحرى عن سعادتهم كما يتحرى عن سعادته . على ان النزاع بين هاتين الحالتين هو نزاع عنيف ، وقد تقوى في الانسان حالة منهما دون اخرى بحسب ميوله القلقة التي تميل به إما الى ذاته واما الى المجتمع . فبعضهم تغلب فيه الذاتية على غيرها ، فيضحي بمصالح الغير في سبيل مصلحته ، وبعضهم يضحي بمصلحته عاملاً على صيانة مصالح الغير . اما نيتشه فهو من القائلين « بالذاتية » الذين يحبون ذواتهم ؛ ومذهب اهل حضارة العصر انما يتجلى في اعتناق مذهب المحبة الشاملة ، وهذا الاختلاف بين نيتشه وبين معاصريه يكفي لان يثير في خصومه عداوة

عميقة وخصومة عنيفة على هذا الذي لا يرى رأيهم في محبة الخير مثلاً اعلى .

على ان هاتين الحالتين ليستا من الحالات المعقدة التي لا يتخطاها الانسان ولا يتعداها ، اذ لست ارى احداً مال بكليته الى حالة وقطع كل اتصاله بالاخرى . فهنالك درجات متفاوتة في الغرائز ، وهذه الدرجات قد تتغير وتتطور بحسب الزمن والعصر والمحيط. على اننا سنحكم على فلسفة نيتشه الآن حكماً عقلياً واضحاً . ان فلسفة نيتشه هي مثال من اجمل الامثلة الذاتية الارستقراطية ؛ مثال جميل حي منطقي ، يحتوي على هدى لكل من يريدون ان يكونوا حياتهم ويجعلوا منها مثالاً واحداً يتحدون معه ، كما هو الامر في فلسفة « تولستوي » المناقضة لفلسفة نيتشه . على ان الحل الذي اعطاه نيتشه للمسألة الاخلاقية يتراءى لنا ان احتماله شديد على الانفس ، في الناحية التفكيرية والناحية العملية ، وان تنفيذ مذهب « السوبرمان » ليفتقر الى جهود قل ان توجد ؛ ونيتشه ذاته يعلن ان امثال هؤلاء الافراد الذين نجد فيهم العبقرية لم يكونوا الا وليدي المخيلة والخيال . وهكذا يتراءى لنا ان نيتشه لم يخلق ليكون زعيم مدرسة فلسفية حقيقية . انه سيبقى وحيداً فريداً ، أمة وحده بين الناس ، كما كان في حالة تفكيره وتأمله ؛ على ان مذهبه تارك وراءه تأثيراً كبيراً ينمي في روح الفرد وروح الشعب « الافكار الذاتية » وهذا التأثير يتبع خيره وشره الجبلة

الخلقية التي تلتصق بالافراد والشعوب . فهو قد يعمل على تهديم طبائع طغت فيها الانانية على كل شيء حتى جاوزت حدها ؛ وقد يعمل على رفع بعض الطبائع ، يدرأ عنها كل آفة ويحميها من كل خطر من الاخلاق والديموقراطية والزهد .

يبدو لي ان عمل نيتشه له اثر قوي في بيئة كبيئتنا ، ولا ريب في ذلك ، فان ما اراه في مظاهرنا الاجتماعية لا يدل على فيض في الحماسة المادية والخلقية . قليل من المفكرين الذين هم في مستواه يعرفون ان يسوقوا الانسان الى معرفة نفسه والوقوف ازاءها مجرّداً ، وقليل من اصحاب جمهورية الفضيلة من يمزقون — في وضح النهار — هذه الاغشية الرقيقة والاكاذيب الخفيفة التي تستر بها النفس ضعفها وجبنها وذلها وعجزها ، وقليلون من علماء النفس من وضّح وابان واحسن البيان عن الحقيقة الذليلة التي ترتدي هذه الاثواب المزركشة: اثواب الشفقة ومحبة القريب والزهد .

ان نيتشه كالطبيب الصارم الذي لا تدخل قلبه الشفقة، والعلاج الذي يحمله الى مرضاه، علاج قاس خطر استعماله، ولكنه علاج يخلق العزم والقوة ، انه لا يعزي من يأتيه شاكياً ، ولكنه يترك الشاكين تسيل الدماء من جراحهم ليجعلهم اكثر قوة واشد احتمالاً للالم . فهو اما ان يشفي مرضاه شفاء صحيحاً او يقتلهم . قد يخشاه الناس للمرة الاولى وينفرون من مباضعه ، ويلقونه باحتراس ووجل ! يتساءلون : اليس هذا الانسان

شريراً جلاداً ؟ يفرون من طريقه ويختلفون الى اطبـاء خفيفة اناملهم ، لينة كلماتهم ، حلوة علاجاتهم ، خلية تعاليمهم من الشدة والصرامة ، ولكن نبتشه يلوذ به فريق من المخلصين له ولانفسهم ، يحبون صرامته ، ويحبون استقامته وخلقه كله . وفي اعتقادي ان هؤلاء لم يكونوا مخدوعين باعجابهم به واخلاصهم له ، وقد علموا انه ليس عن صرامة قلبه ولا معرفته للألم معرفة خاطئة - قد غدا صارماً قاسياً على الانسانية المتألمة ، وحياته كلها مشحونة بالحوادث البالغة ، والمصائب الكبيرة ؛ وحظه السيء الفاجع قضى عليه بان يكون صادقاً عن الاشفاق على ضعف الانسانية وفاقتها . انهم ليقفون بخشوع وجلال ازاء المفكر الجبار الذي لم يخضع للذل ولم يلعن الوجود ، برغم مرضه العضال ، وظل على غبطته ورضاه في الحالة التي كان يصاوع فيها الموت والجنون دون ان ينفذ اليه الوهن والضعف ، متمماً أنشودته المؤثرة في تمجيد الحياة الفتية الفياضة المخصبة ، مناضلاً حتى النهاية ، الألم الذي غلب على عقله ولم يستطع ان يقهر ارادته الواعية .

انتهى

فهرست الكتاب

صفحة

مقدمة ٣

تمهيد ٨

عنصر الشخصية في نيتشه ٩

غزوات نيتشه ٣٩

نيتشه الفيلسوف ٥٢

الناحية السلبية من مذهب نيتشه ٦٣

الناحية الايجابية من مذهب نيتشه ٩٧

تعليق المؤلف على فلسفة نيتشه ١١٨

٥٤/١٠/٧١

مطبعة قلفاط – بيروت